القسم الثاني

دراسات نحوية ولغوية وبلاغية
في ظلال النصوص القرآنية

حوار بين الإيمان والكفر
من سورة الأعراف
بسم الله الرحمن ارحيم

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ
أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾
ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ
مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟
لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن
كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ
ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾
أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا
ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ
مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا
كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ
عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ
عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ
بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ
أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾
فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا

هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ
هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ
أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟
فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو
بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ
عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ
وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟
صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ
ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ
فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا
تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن

المفردات اللّغوية

البأساء: كلّ ما نالهم من الشدّة من أحوالهم.

الضّرّاء: ما نالهم من الأمراض.

الحسنة: الرّخاء. **السّيّئة**: الشّدة (في سياق الآية)، والحسنة عند أهل اللغة: ما يستحسنه الطبع والعقل. والسّيئة: كل ما يسوء صاحبه.

عَفَوْا: يقال: عفا الشّعْرُ وغيره: إذا كَثُر فهو عافٍ، ومعنى عَفَوْا في الآية: كَثُروا.

بركات السماء: المَطر، وبركات الأرض: النبات والثّمار، وكثرة المواشي والأنعام.

الضّحَى: صَدْر النّهار، وأصله الظّهور من قولهم: ضَحا للشمس: إذا ظهر لها.

نطبع على قلوبهم: الطّبع: الخَتْمُ، والغشاوة، والصّدّ والمنع.

القرى: المراد بها قرى الأقوام الخمسة وهم: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.

العهد في هذه الآية: المراد به الإيمان.

الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

حقيق عليّ أن لا أقول: واجب.

نزع يده: النزع في اللغة: عبارة عن إخراج الشّيء عن مكانه، فنزع يده: أي أخرجها من جيبه.

أرجه: أيْ أخّره، يقال: أرْجَأْتُ الأمر، وأرْجَيْتُه: إذا أخّرته.

استرهبوهم: أرهبوهم، والسّين زائدة.

الإفك: هو قلب الشيء عن وجهه، ويأفكون هنا بمعنى يكذبون.

فوقع الحق: الوقوع ظهور الشيء بوجوده نازلاً إلى مستقرّه ومعناه: فتبيّن الحقّ من السِّحر، لأن السحر ليس بحق.

المعنى الإجمالي

من الآيتين رقم ٩٤، ٩٥: ذكر سبحانه بعدما ذكر قصص الأنبياء، وتكذيب أُمَمِهم إيّاهم، وما نزل بهم من العذاب لِيُسَلّي نبيّه ﷺ. إنه ما أرْسَل رسولاً إلى قرية من القرى، فكذّبه قومه إلّا أخذ هؤلاء المكذبين بالبأساء والضّراء ليتنبّهوا ويعلموا أن ما أصيبوا به من البأساء والضّراء ما هو إلّا مقدّمة العذاب.

وكان الواجب يقتضي منهم أن يتوبوا إلى الله تعالى، ويتضرّعوا حتى لا يصيبهم العذاب.

ولأجل أن تقوم عليهم الحجة فإن الله تعالى رفع عنهم السّيئة، والمراد بها الشدّة والبأساء، ووضَعَ الحسنة مكانها، والمراد بها: الرّخاء حتى عَفَوْا أي كَثُرَتْ أموالهم، وقال بعضهم لبعض هذا شأن الدّهر: يومان يومُ شِدّة ويوم رخاء، وهكذا كان أباؤنا تتبدّل الدنيا لهم من سوء العيش إلى رخائه ومع ذلك لم يتحولوا عن عقائدهم.

هؤلاء الجبابرة المتكبرون الذين لم يتّعظوا من حالة الشّدّة، ولم يتنبّهوا في حالة الرّخاء ليعلموا أن الذي جلب إليهم الشدة هو الله، وأن الذي وهبهم الرّخاء هو الله فينقادوا له، ويتّبعوا رسله، ولكن عميت قلوبهم، فأخذهم الله تعالى بَغتَةً وهم لا يشعرون.

* * *

وفي الآيات رقم ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩ يُبيِّن الله تعالى أن هؤلاء الذين

أهلكناهم بغتة هم الذين كانوا سبباً في ذلك الإهلاك مع أنهم لو آمنوا وصدَّقوا لفتح الله عليهم الخيرات النّامية من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بإخراج النّبات، ولكن لم يفعلوا كذلك، فكذّبوا فكان جزاؤهم الإهلاك.

والحديث عن القرى في العصور الماضية مقدمة لأهل القرى الذين كذبوا الرسل عليهم السَلام، فللعِبرة والعظة ذكر ما حَلّ بالأمم السابقة لتَتّعِظَ الأمة الحاضرة فأهل القُرى من قومك الذين كذّبوا، هل آمنوا أن يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون أو يأتيهم بأسنا نهاراً عند ارتفاع الشمس وقت الضحى وهم يلعبون؟

وبعد هذا كله هل أَمِنُوا عذاب الله أن يأتيهم في لحظة من اللحظات وهم لا يشعرون.

وسمّى العذابُ مَكْراً لنزوله بهم من حيث لا يعلمون كما أن المكر ينزل بالممكور به من جهة الماكر من حيث لا يعلمه.

* * *

وفي الآيات: ١٠٠، ١٠١، ١٠٢ يسوق الله تعالى لهم العبرة والعظة فيسجّل لهم في هذا الموقف أن الذين يرثون الأرض من بعد هلاك الأمم الذين قبلهم بتكذيبهم للرّسُل أنه لو شاء لأهلكهم بذنوبهم كما أهلك الأمم الماضية قبلهم، لأنّهم لا يسمعون الوعظ، ولا يلتفتون إلى العظة لما طبعت عليه قلوبهم من الإثم والضلال.

ثم يخاطب الله تعالى نبيّه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ﴾ - أي القُرى التي أشارت إليها الآيات السابقة - لتتفكّر فيها وتخبر قومك بها، ليعتبروا فلا يقعوا في العصيان كما قعت هذه الأمم.

والرسل حينما يبعثون، يبعثون ومعهم الدلائل والحجج الواضحات على صدق رسالاتهم، وأضاف الرسل إليهم، لأن العقل السليم

يقتضي أن ينتفع بما جاءت به الرسل ولكن مع هذه البينات والدلالات ما كان الخلق ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم، لأن الله تعالى طبع على قلوبهم لكفرهم وعصيانهم.

وهم قوم لا وفاء لهم بعهد، وليسوا بحافظين للعهد.

* * *

وفي الآيات: ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨ نرى ما يأتي:

أ ـ العطف بقصة موسى عليه السلام على ما تقدّم من قصص الأنبياء.

ب ـ إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون ومعه الحجج والبيّنات التي تؤيّده وبمقتضى هذه البيّنات كان الواجب على فرعون وقومه أن ينقادوا لله تعالى ويؤمنوا برسوله عليه السلام.

جـ ـ ومع هذه البيّنات فقد كذّبوه، وكان فيَ التكذيب هلاكهم، لأن فرعون وقومه مفسدون.

د ـ حوار موسى مع فرعون حوار الإيمان مع الكفر، فموسى واجه فرعون بالحقيقة حيث قال له: إنّي رسول من رب العالمين، وهذه حقيقة لا تقبل الحوار أو الجدل لوضوحها، ووجود الحجة على تأييدها. وواجهه مرّة أخرى بأنه يحمل معه آية من الله، وهي معجزته التي لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثلها.

هـ ـ ولكونه يحمل هذه المعجزة وهي قوة مُؤيَدٌ بها، فكان الموقف قوياً بالنسبة لموسى عليه السلام مما جعله يوجّه لفرعون أمراً، وهو سرعة إطلاق سراح بني إسرائيل من تسخيره لهم، واستخدامه لطاقاتهم في الأعمال الشاقّة.

و ـ وغرور فرعون جعله يتخيّل أن موسى غير جاد فيما يقول، ومن هنا تحدّاه فقال له: هات آيتك، وأرنا حُجّتَك.. فكانت إجابة موسى عليه السلام سريعة ومفاجئة، لأنها ردّ عمليَ لجوابه، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين.

وفاجأه بإجابة أخرى وهي عملية أيضاً حيث أخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء لها شعاع يغلب نور الشمس.

* * *

وفي الآيات: ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢: توضح لموقف قوم فرعون لمّا رأوا من معجزتي موسى عليه السلام، فقد قال الأشراف بعضهم لبعض في سبيل المشورة، وتبادل الرأي: هذا الذي رأيناه ما هو إلاّ سحر ساحر يريد أن يجذب بني إسرائيل إليه ليقوى بهم، ثم يشتد أمرهم، فيتغلبوا علينا.

وقد سمع فرعون آراءهم فطلب منهم سرعة الاتفاق على الرأي، فقال لهم: ماذا تأمرون؟ فقالوا له: أخّر حكمك في هذا الذي أراد أن يغيّر معتقدنا، ويهزّ مجتمعنا، وأخر حكمك أيضاً في أخيه حتى نقيم حواراً سحرياً بيننا وبينه، وما عليك إلا أن ترسل رسلك إلى المدائن التي حولنا ليجمعوا لك السّحرة، فيحاوروا موسى بالسّحر فيغلبوه، وحينئذ لا تقوم له حجة، وفي هذه الحالة افعل به وبأخيه ما شئت، فقد تكون الغلبة للسحرة، وفي هذا اطفاء لحجة موسى، وقضاء على معجزته التي يدّعيها، فيهرب من الناس، وبخاصة من قومه بنو إسرائيل.

* * *

وفي الآيات: ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، تسجيل للحوار الذي دار بين السّحرة وفرعون، حقًّا إنه تسجيل رائع، لأن السّحرة ما جاءوا عن عقيدة وإيمان ليغلبوا موسى بالسّحر، وإنما جاءوا وكل همهم أن يأخذوا أجراً على ما يفعلون فالدافع لحوارهم هو المال والنّفع الدنيوي، وهذا يختلف تماماً عن حوار موسى الذي كان من ورائه أن يجذبهم إلى الإيمان، ويخلص بني إسرائيل من الطغيان. ولما سمع فرعون عَرْضهم أجابهم لطلبهم، وليس هذا فحسب، بل وعدهم أن يحقّق لهم منزلة أعلى عنده وهي القرب إليه، ومنزلة القرْب أقوى من منزلة المال.

وبدأ الحوار، وعرضوا على موسى إما أن يبدأ هو أو يبدءوا هم ولكن

موسى قال لهم: ألقوا أنتم، وفي هذا تهديد لهم بأنهم مهما فعلوا فإنهم مهزومون.

فلما ألقوا حبالهم وعصيهم احتالوا في تحريك العصّى والحبال بما جعلوا فيها من الزئبق حتى تحرّكت بحرارة الشمس، وخيل إلى الناس أنها إنما تتحرّك على ما تتحرّك به الحيّة، وقد أرهبوا الناس وأفزعوهم بهذا السحر الباطل.

وقد وصف سحرهم بأنه عظيم لكثرة الحيلة فيه، وشدّة التّمويه به فهو لذلك عظيم الشأن عند من يراه من الناس.

* * *

والآيات: ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢ توضّح أنّ الله تعالى أوحى إلى موسى أن ألق عصاك التي معك، فألقاها فصارت ثعباناً عظيماً ابتلعت كل حبالهم وعصّيهم، فبطل تمويههم، وظهر إفكهم.

وفي هذه الآيات لفتة رائعة، فموسى عليه السلام لعلمه أنه يحمل آية، وأنه مؤيّد بمعجزة، ومؤمن كل الإيمان بأن الغلبة له. ولكن مع ذلك لم يستعمل كل هذه القوة بدون إذن، انتظر حتى يأتيه الأمر من السماء ليبدأ حواره وسرعان ما نزل الأمر من السماء المتمثل في قوله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾، وبمجرد هذا الأمر ألقى موسى عصاه، فإذا هي تفعل الأفاعيل بسحرهم، وهنا كانت الغلبة لموسى عليه السلام، وقهر فرعون قومه فما كان من السّحرة بعد هذه الرؤية الواضحة إلا أن يخروا ساجدين مؤمنين بالله تعالى وبنبيّه موسى عليه السلام، قائلين: آمنّا برب العالمين رب موسى وهارون.

* * *

والآيات: ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، توضح مشهداً لفرعون المفتون بنفسه، فبعد أن رأى الحق بعينيه استبد به الطغيان منكراً على السّحرة هذا

الإيمان، وهذه الجراءة من الانقياد لموسى بدون إذن.

وهذا أمر عجيب، إنّه شأن الجبابرة في كل زمان، فعلى الرغم من إحساسه بتهاوي عرشه، وتحطيم سلطانه ما زال يحلم بأنه صاحب الشأن، وأنّه صاحب الأمر.

وأراد فرعون أن يوهم الناس أن إيمان السّحرة لم يكن عن علم، ولكن عن اتفاق بينهم ليُذْهِبوا مالكم وملككم.

وهدّد فرعون السّحرة بأنهم سوف يعلمون، فلهم ساعة من العذاب، تُقْطع فيها الأيدي والأرجل ثم التصليب.

ولكن منطق الإيمان جعل السحرة يسخرون بفرعون وقوته، وجنوده وسلطانه قائلين لهم: افعلوا ما شئتم فإننا منقلبون إلى الله.

وكانت الكلمة الأخيرة لهم أنهم دعوا ربهم أن يتحملوا هذا العذاب، ويصبروا عليه: «ربنا افْرِغ علينا صَبْراً وتوفّنا مسلمين».

* * *

أساليب نحوية

أ ـ في الآية ٩٥ تعرب بغتة حالاً، وهي مصدر وضع موضع الحال.

ب ـ في الآية ٩٦ نضع أيدينا على أسلوب «لو» وهي تعلّق الثاني بالأول، فإذا ما وجب الأول وجب الثاني، وإذا انتفى الأول انتفى الثاني.
ولو بهذا المعنى تشبه إنْ الشرطيّة من حيث التعليق. فـ «إنْ» تعلق الثاني بالأول الذي يمكن أن يكون، ويمكن ألاّ يكون كقولك: إن آمن هذا الكافر استحقّ الثواب وهذا مقدور. وليس الأمر كذلك بالنسبة لـ «لو» لأنها قد تدخل على ما لا يمكن أن يكون كقولك: لو كان الجسم قديماً لاستغنى عن صانع.

جـ ـ وفتحت أنّ بعد «لو» لأنّها وقعت في الموضع الذي يختص بالفعل فإن «لو» ليس يدخل إلاّ على الفعل.
وأنّ مع اسمها وخبرها في تأويل اسم مفرد، فيكون تقديره: لو وقع أن أهل القرى آمنوا، فيكون أنّ مع ما بعدها في موضع رفع بالفعل المقدر بعد «لو».

د ـ ودخلت همزة الاستفهام في الآية ٩٧ على حرف العطف من قوله: «أفأمن» «أو أمن» مع أن الاستفهام للاستئناف، والعطف بخلافه، لأنهما إنما يتنافيان في المفرد، لأنّ الثاني إذا عمل فيه الأوّل كان من الكلام الأول، والاستئناف قد أخرجه من أن يكون فيه.
وأما في عطف جملة على جملة، فتصحّ لأنه على استئناف جملة بعد جملة.

هـ ـ «من عهد» ١٠٢ «مِنْ» معناها التبعيض، لأنه إذا لم يوجد بعض العهد لم يوجد الجميع.
«وإنْ وجدنا» إنْ هنا المخففة من الثقيلة، وإذا خففت جاز إلغاؤها من العمل، وأن يليها الفعل.

و ـ في الآية ١٠٣: كيف كان عاقبة المفسدين: موضعٌ كيف نصبٌ لأنه خبر كان، وتقديره: وانظر أي شيء كان عاقبة المفسدين.

ز ـ في الآية ١٠٥: «إلا الحق» بأنه مفعول القول على غير الحكاية بل على معنى التّرجمة من المعنى دون حكاية اللفظ.

ح ـ في الآية ١١٠ : «فماذا تأمرون» موضع «ما» يحتمل أن يكون رفعاً، ويكون «ذا» بمعنى الذي، فيكون بمعنى: فما الذي تأمرون؟
ويحتمل أن يكون نصباً، ويكون «ما» و «ذا» اسماً واحداً، ويكون بمعنى: فأي شيء تأمرون.

طـ ـ في الآية ١١١ «يأتوك» مجزوم لأنه جواب الأمر.

ى ـ في الآية ١١٣: ﴿ إن كنا نحن الغالبين ﴾: «نحن» يحتمل أن يكون

فصلاً بين الخبر والاسم، ويحتمل أن يكون موضعه رفعاً، ويكون تأكيداً للضّمير المتصل في «كنا».

ك ـ في الآية رقم ١١٧ ﴿ أن ألق ﴾ يجوز أن يكون أن مع ما بعدها من الفعل بمنزلة المصدر، فيكون تقديره: وأوحينا إلى موسى بأن ألق أي بالإلقاء. ويجوز أن يكون بمعنى «أي» لأنه تفسير ما أوحى إليه.
﴿ ما يأفكون ﴾ «ما» بمعنى الذي فتكون مفعولاً به.

ل ـ في الآية ١١٨: ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ يحتمل أن تكون «ما» بمعنى المصدر أي وبطل عملهم، ويحتمل أن يكون «ما» بمعنى أي وبطل الحبال والعصيّ التي عملوا بها السحر.

م ـ في الآية ١١٩: ﴿ هنالك ﴾ دخلت اللام فيه ليدل على بعد المكان المشار إليه. ودخلت كاف الخطاب مع بعد الإشارة لتشعر بتأكيد معنى الإشارة إلى المخاطب، ليتنبّه على بعد المشار إليه من المكان، والبعيد أحق بعلامة التنبيه من التقريب.

* * *

[انظر مجمع البيان في تفسير القرآن للطيرسيّ].

أساليب بلاغية

في هذا النص أساليب بلاغية متعددة، نكتفي بالإشارة إلى بعضها. فمن هذه الأساليب:

أ ـ الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿ أفأ من أهل القرى ﴾[1]، ﴿ أو أمن أهل القرى ﴾ في الآيتين رقم ٩٧، ٩٨.

(١) الأعراف: ٩٧.

ب ـ الاستفهام التقريري: في قوله تعالى: ﴿ أولم يهد للذين يرثون الأرض ﴾ إلخ.

جـ ـ في الآية ١٠١ في قوله تعالى: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ في الآية تشبيه، فقد قيل: إن الله سبحانه شقّ الكفر بالصّدأ، لأنه يذهب عن القلوب بحلاوة الإيمان ونور الإسلام كما يذهب الصدأ بنور السّيف، وصفاء المرآة.

د ـ في الآية رقم ١٠٥ تضمين ففي قوله تعالى: ﴿ حقيقة على أن لا أقول ﴾: ضمنت «على» معنى الباء كما ضمنت الباء في قوله تعالى ﴿ بكل صراط توعدون ﴾[1] موضع «على».

هـ ـ في الآية ١١٣ سقطت الفاء من قوله تعالى: ﴿ قالوا إن لنا لأجراً ﴾ حتى يتّصل الثاني بالأول، لأن المعنى: لما جاءوا قالوا، فلم يصلح دخول الفاء على هذا الوجه.

و ـ في الآية ١١٧: ﴿ فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ إيجاز حذف أي فألقاها فصارت حيّة فإذا هي إلخ.
وحذفت الجملة للإيذان بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء، وبغاية سرعة الانقلاب، كأن لَقْفَها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء واختار صيغة المضارع في «تلقف» لاستحضار الصورة القريبة.

ز ـ في الآية ١١٨ في قوله تعالى: ﴿ فوقع الحق ﴾ استعارة، فوقع بمعنى ثبت واستعير الوقع للثبوت والحصول، لأنه في مقابل: بطل، والباطل زائل.
وفائدة الاستعارة: الدلالة على التأثير، لأن الوقع يستعمل في الأجسام.

ح ـ في الآية ١١٩: ﴿ انقلبوا صاغرين ﴾: الانقلاب هنا مجاز عن الصيرورة، والمناسبة بينهما ظاهرة.

طـ ـ في الآية ١٢٦ استعارة تبعيّة: فأفْرِغ بمعنى أَفِضْ فهي استعارة تبعيّة

تصريحيّة و «صبراً» قرينتها، والمراد هب لنا صبراً تاماً كاملاً.

ومن الممكن أن تكون استعارة أصلية مكنيّة بمعنى: صبّ علينا ما يُطهّرنا من الأثام، وهو الصبر على وعيد فرعون، و «أفرغ» تخيلية.

* * *

درس في الإيمان

مِنْ سورة (المؤمنون)

من آية رقم ٨٤ - إلى آخر السورة

قُل لِّمَنِ
ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ
قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾
قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ

تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾
مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ
كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾
رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن
نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ
ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ
هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾
لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ
وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ

فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا
كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا
ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾
قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ
عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم
مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ
هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾

قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن
لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ
ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾
وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾
وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

الكلمات اللغوية

الملكوت: المُلْك على سبيل المبالغة.

يجير ولا يجار عليه: يقال: أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته.

تُسْحَرونَ: تخدعون، والخادع هو الشيطان والهوى.

همزات: جمع همْزة، والهمزة: الغمز، والدفع، والضَّرْب، همَز يهمِز بكسر الميم وضمّها في المضارع. والهُمزَةَ: الغمّاز.

ارجعون: المخاطبون هم الملائكة الذين يقبضون الأرواح وهم جماعة، وذكر «الرّب» للقسم كأنه قال: بحق الرب ارجعونِ.

أن يحضرون: أي من حضورهم حولي في حال الصلاة أو قراءة القرآن أو وقت حلول الأجل.

ومن ورائهم: ومن أمامهم، فوراء بمعنى أمام.

البرزخ: الحاجز بينهم وبيسن الرجعة.

غلبت علينا شقوتنا: مَلَكَتْنَا، من قولك: غلبني فلان على كذا: إذا أخذه منك، والشقاوة: سوء العاقبة.

اخسئوا فيها: ذلّوا وانزجروا كما تزجر الكلاب إذا زجرت.

ولا تكلمون: ليس هذا نهياً لأنه لا تكليف في الآخرة بل المراد: لا تكلمون في رفع العذاب، فإنه لا يرفع.

الصور: القرْن، والنفخ فيه لقيام السّاعة، وهي النفخة الثانية.

فلا أنساب بينهم: أي لا تنفعهم أنسابهم شيئاً ـ فهي بمنزلة العدم لعظم الهول.

ولا يتساءلون: أي لا يسأل بعضهم بعضاً بهذه الأنساب.

ثقلت موازينه: موزونات حسناته من العقائد والأعمال.

تلفح وجوههم النار: اللفح: حسّ لهيب النار لشيء، والمراد: تحرق وجوههم النار.

كالحون: متقلصوا الشّفاه عن الأسنان من أثر ذلك اللّفح.

سخريًّا: أي هزؤاً. وقرىء بضم السين ومعناه: الاستخدام من غير أُجرة، والكسر معناه: الاستهزاء وهو مصدر في كلتا القراءتين زيدت فيه ياء النسب للمبالغة كما في أحمريّ.

العادّين: المتمكّنون من العدّ، أو الملائكة ـ العادّين لأعمال العباد.

إن لبثم: ما لبثتم.

المعنى الإجماليّ

الآيات من ٨٤ ـ ٩٠

القرآن الكريم في هذه الآيات يقرّ حقيقة طالما أنكرها الكافرون وهي حقيقة البعث، فقبل هذه الآيات التي عرضناها ظهرت قضية الإنكار للبعث في وضوح حينما حوّلوا هذه الحقيقة إلى أسطورة وكرّروا إنكار البعث بالأسلوب الذي تكرّر على ألسنة آبائهم.

وفي هذه الآيات يثير فيهم القرآن الكريم حقائق لا تقبل الجدل والنقاش فإذا ما استسلموا لهذه الحقيقة فمن البدهي أن يستسلموا لحقيقة البعث التي طالما أنكروها.

من هذه الحقائق وهي حجج سافرة وأدلة باهرة:

أ ـ حقيقة الأرض، مَن بسطها، مَنْ ملكها، مَنْ دبّر شئونها؟ لسان الحال يقول: هو الله.

ب ـ حقيقة السموات السبع: وهي ملك عجيب تحار فيه العقول، ولا يدبّر هذا الملك إلا خالقه.

جـ ـ حقيقة العرش وهو رمز الاستعلاء والهيمنة والعظمة.

د ـ حقيقة ملكوت كل شيء، وما أعظم هذا التعبير، فلكل شيء دولة ولكل شيء ملكوت، فمن يملك هذا كله، من كل هذا الملكوت بما عظم فيه وما دق، وما كبر، وما صغر؟.

لسان الحال يقول: الملكوت ملكوت الله، فإذاً ما هذا الوهم وما هذا الضلال فأنتم مسحورون.

هـ ـ حقيقة القوّة التي ليس بعدها قوة، القوة التي مَنْ استجار بها أنقذته ممّا حل بها.

كل هذه الحقائق مشاهدة للعيان، لا ينكرها عقل أو يجحدها فكر، وما دام الأمر كذلك فمن السهل على من يملك هذه الحقائق أن يعيدكم كما بدأكم.

بعد هذا العرض الجدليّ لهذه الحقائق يهجم عليهم القرآن بتقرير لا يحتمل أدنى شك وهو أننا أتيناهم بالحق، ولكن لسوء طباعهم، وشدة انحرافهم كذبوا به.

* * *

الآيات من ٩١ ـ ١٠٠

أكّد الله تعالى في هذه الآيات أنه إلى جانب حقيقة البعث حقيقة أخرى هي أنه ليس بشراً مخلوقاً له ولد، فإن هذا من صفات المخلوقين، أما الخالق فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وإلى جانب نفي الولادة أيضاً نفي الشركة في الخلق، إنها لو كانت كما يتصوّرون لذهب كل إله بما خلق، ودارت بينهما الحرب ليعلو كل إله على الآخر، وفي هذا ما فيه من فساد الكون، وخراب الدنيا لأن الكون لا يدين إلا لواحد، ولأنّ الدنيا لن يستقيم أمرها إلاّ بتدبير إله واحد.

لهذا نزّه الله سبحانه وتعالى نفسه من هذه الظنون الواهمة، والخيالات الكاذبة، لأنه عالم الغيب والشهادة، فتعالت عظمته، وتسامت ألوهيته عن صفات المخلوقين.

وهؤلاء المشركون الذين لعب الشيطان بعقولهم إلى هذا الحدّ من الافتراء على الله عرضة للعقاب.

وهنا يعلّم الله تعالى نبيه عليه السلام، ويربّيه هذه التربية الرائعة بقوله: وقل ربّ إما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالقوم الظالمين.

أدب عظيم في التربية أن يلجأ النبيّ عليه السلام إلى ربه حينما يحل العذاب على قومه، وهو في مأمن من أن يصيبه عذاب قومه، ولكن هذا الدعاء للتربيّة، وشدّة الاتصال بالله تعالى، وزيادة في التّوقي.

وفعلاً قد أراه الله تعالى بعض ما وعدهم به من العذاب في غزوة بدر ثم في الفتح العظيم.

والسّورة مكيّة، والسّور المكيّة معظمها يدور حول الصبر والتحمل حتى تقوى شوكة المسلمين، ولذلك كان من منهج الدعوة أن يقابل المسلمون سيئات المشركين بالحسنى: «ادفع بالتي هي أحسن السّيئة».

وللمسلمين أعداء آخرون غير المشركين من بني البشر وهم الشياطين. فعلم الله نبيّه من باب التربية أن يستعيذ من همزاتهم مع أنه معصوم منهم لزيادة التوقّي، والمبالغة في التحرّي من ناحية ولتعليم أمته هذا المنهج التربويّ من ناحية أخرى.

وينتهي هذا النص بمشهد مثلته الآيتان رقم ٩٩، ١٠٠، مشهد هؤلاء الذين عميت قلوبهم عن الحق في الدنيا، وأضلّتهم الشياطين وكثر فيهم من همز الشياطين ما كثر، والتفّوا حولهم أقوى ما يكون الالتفاف حتى حالوا بينهم وبين الحقيقة.

وحينما كشف الغطاء، وجاء الأجل، وأعلن الموت عن نفسه عرفوا

حقيقة وضعهم، وسوء مآلهم فنادوا ربهم متذللين أن يعيدهم ليبدءوا من جديد، ولكن هيهات هيهات، فمن مات فلا رجعة له، لأن الموت قد أغلق الأبواب أمام العودة وأسدل الستار، وأنهم سيقضون أيامهم قبل البعث في البرزخ، فلا هم من أهل الدنيا، ولا هم من أهل الآخرة حتى يأتي ذلك اليوم العظيم وهو يوم البعث.

* * *

الآيات ١٠١ ـ ١١٠:

في هذه الآيات تصوير لليوم الآخر، وهو تصوير رهيب ففي هذا اليوم توضع الأنساب، وترتفع الأعمال، تتهاوى قيم، وتعلو قيم، تتهاوى قيم الأنساب الكاذبة، وتتعالى قيم التقوى والإيمان.

وفي هذا اليوم يثقل ميزان، ويخف ميزان، فميزان التقوى والإيمان ثقيل بالأعمال، وميزان الباطل والكفر خفيف وصورة الميزان صورة حركيّة وحسيّة، فالقرآن الكريم في أسلوبه الرائع يضع المعاني مجسّمة في صور محسوسة، ليقرع بها عقل الإنسان حتى يستيقظ من غفلته.

وما أفظع مشهد النار وهي تلفح الوجوه، وجوه الذين خسروا أنفسهم، فتتحول هذه الوجوه إلى وجوه ذات كدرة عليها غبرة.

ويتبع هذا المشهد مشهد آخر يتحول فيه الأسلوب إلى المخاطبة والمواجهة بعد أن كان قبل ذلك أسلوب حكاية وإخبار ويبدأ هذا الأسلوب بالحوار ليثير في نفوسهم الندم: ألم تكن آياتي تتلى عليكم؟ فَلِمَ تكذبوا بها؟ فلا يملكون إلّا أن يجيبوا بالاعتراف الواضح الصريح: إنّ شقوتهم غلبت عليهم وأنّهم ضلوا عن الجادّة، وانحرفوا عن الحق:

وكأن هذا الحوار مدّ لهم حبل الأمل، فبعد اعترافهم ألحوّا في طلب العودة رجاء أن يعملوا عملاً صالحاً، وسرعان ما تبدد أملهم، وخاب ظنهم

بقوله تعالى: ﴿اخسئوا فيها ولا تتكلمون﴾. ومن أذن لكم أن تنطقوا هذا الكلام الذي لا معنى له ولا قيمة.

كيف تتصورون أن يُقبل رجاؤكم وأنتم أجرمتم مرّتين مرة في حق أنفسكم بتكذيبكم وكفركم ومرة في حقّ المؤمنين حيث اتخذتموهم سخرياً، وضحكتم منهم، واستهزأتم بهم فكيف يتحقق طلبكم ويجاب رجاؤكم، والإجرام فيكم عريق، فهؤلاء الذين سخرتم منها. انظروا إليهم أين مكانهم؟ قارنوا بينكم وبينهم، فأنتم في جهنم خالدون وهم في النعيم مقيمون.

* * *

الآيات: ١١١ إلى آخر السّورة:

بعد هذا الردّ القاسي الذي وجه إليهم حينما قدموا رجاءهم تبعه حوار جديد:

سؤال وجه إليهم من الله تعالى وهو عليم بإجابته، ولكنه سؤال يحرجهم ويقلقهم وهو: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ فكانت الإجابة إن مكثنا مهما طال وأيامنا مهما تعدّدت في الدنيا فما هي بالنسبة لنا إلا يوم أو بعض يوم، ونحن بحسب قدرتنا المحدودة لا نعرف كم مكثنا في الأرض أو كم مكثنا في القبور قبل البعث على رأي آخر، والذي يعلم ذلك كل العلم هم العادّون والمراد بهم الملائكة.

وكان الردّ الحاسم: أنتم ما لبثتم إلا قليلاً بالقياس إلى ما أنتم مقبلون عليه إذا كنتم تحسنون التقدير.

وعودة أخرى إلى السخرية بهم وتبكيتهم وهو المشهد الأخير من هذه المَلذّات، فهل فكروا بعقولهم وتدبروا بأفكارهم أن الحياة ما خلقت عبثاً، وأن هناك بعثاً وعقاباً، وأن هناك إلهاً واحداً ليس له شريك في سلطانه أو في ملكوته.

وتنتهي السّورة بدعوة النبي عليه السلام أن يدعو ربه بالمغفرة والرحمة.

الأساليب النّحويّة

﴿ إذاً لذهب كل إله بما خلق ﴾: آية ٩١. «ما» موصولة حذف عائدها.
﴿ عالِم الغيب ﴾ آية ٩٢.

بدل من الاسم الجليل أو صفة له. وقرىء بالرفع، فهو خبر مبتدأ محذوف، وفائدته التوكيد.

والجرّ على الصفة أو البدليّة هو الاختيار ليتصل بعض الكلام ببعض، ويكون كله جملة واحدة.

﴿ فتعالى الله عمّا يشركون ﴾ آية ٩٢.
الفاء عاطفة كأنه قيل: عالم الغيب والشهادة فتعالى كما تقول: محمد شجاع فعظمت منزلته على معنى: شجع فعظمت.

﴿ فلا تجعلني ﴾ آية ٩٤.
الفاء جواب الشرط، وهو قوله تعالى: ﴿ إما تريّني ﴾ والنداء معترض بينهما.

﴿ وإنا على أن نريك ﴾ آية ٩٥
«على» متعلقة بقوله تعالى: ﴿ لقادرون ﴾.
﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾، ﴿ ومن خَفّت موازينه ﴾ آيتا ١٠٢، ١٠٣.

«من» فيهما: اسم موصول، مشار إليه بـ «أولئك»، وجمعه باعتبار المعنى، وأفرد الضميرين في الصلتين باعتبار اللّفظ.

﴿ في جهنم خالدون ﴾ خبر ثان لـ «أولئك» وجاز أن تكون خبر مبتدأ محذوف، أي هم خالدون في جهنّم.

﴿ تلفح وجوههم النار ﴾. آية ١٠٤
جملة حالّيّة أو مستأنفة.
﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ آية ١١١.

جملة مستأنفة لبيان حسن حالهم. والباء في «بما صبروا» للسببيَّة.

﴿ أنّهم هم الفائزون ﴾

أنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر يعرب مفعولاً ثانياً لقوله تعالى: ﴿ جزيتهم ﴾.

ويجوز أن يكون أنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور باللام التعليلية بتقدير: لفوزهم بالتوحيد المؤدي إلى كل سعادة.

﴿ عدد سنين ﴾ آية ١١٢.

تمييز لـ «كم»، و «كم» ظرف زمان للبثتم.

﴿ عبثاً ﴾ آية ١١٥.

حال صاحبها نون العظمة أو مفعول لأجله.

﴿ لا برهان له ﴾ آية ١١٧.

جملة معترضة بين الشرط والجزاء جيىء بها للتأكيد، وجواب الشرط جملة: «فإنما حسابه».

الأساليب البلاغيّة

آية ٨٤: ﴿ ومَنْ فيها ﴾ التعبير بـ «مَنْ» لتغليب العقلاء على غيرهم.

آية ٨٦ وغيرها ﴿ قل لمن إلاّ من ـ قل من ربّ ـ قل من بيده الأمر في الآيات مراد به التبكيت والتوبيخ.

أفلا تذكرون ـ أفلا تتقون: الاستفهام يراد به الترغيب والتدّبّر، واستعمال العقل: وإفحامهم، وقطع الحجة عليهم.

تكرار لفظ: «رب» مع العرش تنويهاً بشأن العرش، ورفعاً لموضعه ومكانته من أن يكون تبعاً للسموات وجوداً وذكراً.

آية ٨٨: ﴿ ولا يجار عليه ﴾ فيها تضمين حيث عدّ الفعل بـ «على» لتضمينه معنى النصرة والاستعلاء.

في هذه الآيات السابقة روعي التّرقّي في السؤال: فسئل عمّن له الأرض، ومَنْ فيها، ثم سئل عمّن له السموات والعرش العظيم، والأرض بالنسبة إلى العرش كلا شيء ثم سئل عمّن بيده ملكوت كل شيء، فأتى بأعمّ العام.

مراعاة الترقي في الفواصل، فعيّروا أولاً بالجهل لأن مجرّد العلم بذلك يوجب عليهم الإيمان.

وعيروا ثانياً بعدم التذكّر، فإن أيسر النظر يكفي في الإيمان بهذه الحقيقة.

وعُيّروا ثالثاً بعدم الاتّقاء وفي هذا وعيد شديد. وعيّروا رابعاً بالتعجب من خداع عقولهم فتتخيّل الباطل حَقاً، والحقّ باطلاً، فكأنها عقول مسحورة لا تعي من أمرها شيئاً.

﴿ بيده ملكوت كل شيء ﴾ التعبير بكلمة «يده» تصوير وتخييل ليكون ذلك أوقع في النفس، وأشد تأثيراً في القلب.

آية ٩١: ﴿ إذاً لذهب ﴾ إيجاز حذف، فالقسم محذوف، و«لذهب» جوابه، والتقدير: والله إذاً إن كان معه من إله لذهب، وهو في معنى: «ليذهبنّ».

آية ٩٦: ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ أبلغ من: ﴿ ادفع بالحسنة السيئة».

وأفعل التفضيل: «أحسن» يؤدي معنى ادفع بالحسنة التي هي أحسن الحسنات السيّئة بأن تحسن إلى المسيء في مقابلتها ما استطعت.

ودون هذا في الحسن أن يحسن إليه في الجملة، ودون أن يصفح عن إساءته فقط، والمفاضلة في أفعل التفضيل، وهو: «أحسن» على حقيقتها.

آية ٩٧: ﴿ همزات الشياطين ﴾ في هذه الآية مجاز لأن المراد

بالهمزات الوساوس المغرية، وإطلاق ذلك على الوسوسة، لما بينهما من الشبه الظاهر.

وجاءت الهمزات بصيغة الجمع لتنوّع الوساوس أو تعدد الشياطين.

آيتا ٩٧، ٩٨ تكررت الإعادة مع تكرار النداء في «رب» لإظهار كمال الاعتناء بالمأمورين.

آية ٩٩: ﴿ حتّى إذا جاء أحدهم الموت ﴾ في الآية إيجاز حذف فقد حذفت الجملة قبل «حتى» لدلالة ما بعد «حتى» على ما قبلها، فـ «حتّى» هنا ابتدائيّة، وغاية لمقدّر يدلُّ عليه ما قبلها، والتقدير: فلا أكون كالكفّار الذين تهمزهم الشياطين، وتحضرهم حتى إذا جاء إلخ.

ونظيره قول الشاعر:

فـواعجبـاً حتى كليب تسبـنى كأن أباها نهشل أو مجـاشع[1]

قال ابن هشام:

ولا بدّ من تقدير محذوف قبل حتّى في هذا البيت تكون ما بعد حتّى غاية له أي فواعجباً يسبّنى الناس حتى كليب تسبّنى.

﴿ جـاء أحدهم الموت ﴾ المراد أمارات الموت أو علامته.

آية ١٠٠: ﴿ كلمة هو قائلها ﴾ الكلمة المراد بها الكلام ففيها مجاز.

﴿ هو قائلها ﴾ تقديم المسند إليه للاختصاص، ومعنى ذلك أنه لا يجاب إليها ولا تسمع منه.

﴿ لعلي أعمل صالحاً ﴾ المراد بـ «لعلّ» اليقين، وليس الشك فإنه في هذا الوقت عـازم على الطاعة إن أعطى ما سأل.

آية ١٠١: ﴿ إذا نفخ في الصور ﴾ مجاز، المراد منه البعث، والحشر.

آية ١٠٢: ﴿ ثقلت موازينه ﴾ استعارة من العـدل، والموازين هي الأعمال الحسنة أو الأعمال السّيئة.

---

(١) للفرزدق، وانظر المغني ١ / ١٣٧.

آية ١٠٤ ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ تقديم الوجوه على الفاعل، وتخصيصها بالحرق . لأنها أشرف الأعضاء فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار.

آية ١٠٥ ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم ﴾ إيجاز حذف على إضمار القول، أي يقال لهم توبيخاً: ألم تكن إلخ.

آية ١٠٦ ﴿ غلبت علينا شقوتنا ﴾ تصوير الشقاوة واستبدادها في نفوسهم بأنهم غلبتهم، وسيطرت عليهم تصوير مجازيّ.

آية ١١٢: ﴿ كم لبثتم في الأرض ﴾ استفهام مراد به التوبيخ على إنكارهم الآخرة.

آية ١١٣: ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ كناية عن قصر الدنيا.

آية ١١٤: ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ حذف جواب لو الشرطية لبلاغة الإيجاز. والمعنى أي لو كنتم تعلمون لعلمتم يومئذ قصر الدنيا.

آية ١١٥: ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾.
إيجاز حذف، والتقدير: ألم تعلموا شيئاً فحسبتم إنما خلقناكم عبثاً الخ.

آية ١١٦: ﴿ رب العرش الكريم ﴾ إسناد الكرم إلى العرش مجازيّ، والمراد: الكريم ربه، وقيل هو على تشبيه العرش لنزول الرحمة والبركة منه بشخص كريم:

آية ١١٧: ﴿ لا برهان له ﴾ جملة معترضة بين الشرط والجزاء، وهي لون من ألوان المعاني البلاغية في مجال الإطناب حيث يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب مثل قول النابغة الجعدي:

ألا زعمت بنو سعد - بأني ألا كذبوا - كبير السن فاني

* * *

(٦٨) سُورَةُ القَلَمِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ
بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ
لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ
ٱلۡمَفۡتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾
وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ
مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ
ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا

بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾
وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟
مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن
لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ
قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ
نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ
إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ
أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ
تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾
سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟
بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن
سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً
أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ
وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ
إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ
مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾
فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ

نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن
رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ
فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ
لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

سورة القلم

عناصـــر

= دفاع عن الرسول ﷺ، وهجاء لمشركي قريش.

= مثل حيّ في قصة أهل الجنّة للندم بعد معرفة الحقيقة وهو عبرة لمشركي قريش.

= تهديد كبير لمن يكذب بالقرآن الكريم.

= دعوة للرسول عليه السلام بالصبر حتى لا يكون كيونس عليه السلام لما فاته الصّبر حلّ به ما حل.

تمهيـــد

سورة القلم من أوائل ما نزل من القرآن بمكّة، فقد روى ابن عباس نزلت اقرأ، ثم هذه، ثم المزمل، ثم المدّثر.

وهي مكيّة بلا خلاف ومناسبتها لما قبلها أن الله تعالى في آخر سورة المُلْك هدّد بتغوير الماء، فاستدل في هذه السّورة على أن ذهاب الماء أمر سهل بالنسبة لذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلة بطائف طاف عليها وهم نائمون فأصبحت أثراً بعد عين، وإذا كانت الثمار وهي أجرام كثيفة حل بها ما حل فالماء الذي هو لطيف أقرب إلى الذهاب.

الكلمات اللّغوية

ن: أقرب الآراء إلى نفسي أنه اسم للسورة جاء على صورة الحرف لينبه الأذهان إلى أن القرآن عربيّ، ومن ثمّ فباب التحدّي مفتوح إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

القلم : هو قلم اللّوح، وهو أول شيء خلقه الله تعالى أو قلم الكرام الكاتبين أو القلم آلة التحرير.

وما يسطرون : أي يكتبون.

والتعبير بضمير الجمع بالنسبة إلى القلم مختلف المعنى فإن كان القلم الذي في أيدي الناس، فالمراد به الجنس فضمير الجمع لتعدّده.

وإن كان المراد به قلم اللوح فالتعبير عنه بضمير الجمع التعظيمة.

النعمة : الرحمة.

ممنون : أي أجر غير مقطوع مع عِظَمه، أو غير ممنون عليك من جهة الناس، فإن عطاء الله تعالى بلا واسطة لأنه كريم، ومن شأن الكريم ألّا يمُنّ بإنعامه.

ومنّ عليه : أنعم، ومنّ عليه أيضاً: امتنّ عليه. والمنّ يحمل معنى القطع أو النقص.

والمنون : الدهر أو المنيّة، لأنها تقطع الحياة، وتنقص الأيّام.

المفتون : المجنون، وأطلق المفتون على المجنون، لأنه فُتِن أي مُحِن بالجنون.

لأجراً : ثواباً.

ممنون : أي غير مقطوع ولا منقوص، يقال: مننت الحبل إذا قطعته، وحبل منين: إذا كان غير متين.

الخلق : هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب يسمّى خُلُقاً، لأنه يصير كالخِلْقة فيه.

وأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخِيم بالكسر: السجيّة والطبيعة لا واحد له من لفظه..

والخلق في الآية: القرآن ـ أو أدب القرآن ـ أو الدِّين العظيم.

فستبصر ويبصرون : فستعلم ويعلمون يوم القيامة حتى يتبيّن الحقّ والباطل.

المفتون : أي الذي فتن بالجنون. أو المراد: الفتنة. وهو مصدر على زنة المفعول، ويكون معناه: الفتون، كما قالوا: ما لفلان مجلود ولا معقول، أي لا عقل ولا جلادة.

لو تدهن : لو تكفر أو لو تَلِينُ، أو تكذب، أو تخون

الحلاّف : كثير الحلف.

مهين : ضعيف القلب.

همّاز : من يهمز الناس بيده ويضربهم، واللّمّاز من يؤذي الناس بلسانه. وهما للمبالغة.

مشاء : صيغة مبالغة: أي يمشي بالنميمة للإفساد، يقال: نمّ ينمّ نمًّا ونميماً.

أثيم : أي ذي إثم.

العتلّ : الجافي الشديد في كفره.

الزنيم : الدّعيّ الذي ليس له أب ينتمي إليه.
أساطير الأولين : أباطيلهم وخرافاتهم.
سنسمه: سنخطمه بالسّيف أو نجعل على أنفه سِمةً أي: علامة.

الخرطوم: الأنف من الإنسان، ومن السّباع موضع الشفة، وخراطيم القوم: ساداتهم.

بلوناهم : أي أصبنا أهل مكة ببليّة، وهي القحط.
أصحاب الجنة : أصحاب البستان، وخبر البستان هذا معروف عند أهل مكة.

ليصرمنّها: ليقطعن ثمارها.
ولا يَسْتَثْنُون : أي لا يقولون: إن شاء الله، وسمّى استثناء مع أنه شرط، لأن مؤدّاه مؤدّى الاستثناء فإن قولك: لأخرجنّ إن شاء الله تعالى: ولا أخرج إلّا أن يشاء الله تعالى بمعنى واحد.

فطاف عليها : أي أحاط بها.
الصريم : البستان الذي صرمت ثماره فهو فعيل بمعنى مفعول.
تنادوا : نادى بعضهم بعضاً.
اغدوا: اخرجوا.
حرثكم : بستانكم.
يتخافتون : يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة.
حرْد : منع من قولهم: حاردت الإبل: إذا قلّت ألبانها.
أوسطهم : أحسنهم وأرجحهم عقلاً.
تسبّحون : تذكرون الله تعالى، وتتوبون إليه.
يتلاومون : يلوم بعضهم بعضاً.
تدرسون : تقرءون.
زعيم : أي قائم يتصدّى هذا الحكم الخاطيء الخارج عن المعقول.
ترهقهم : تلحقهم.

سنستدرجهم : نستنزلهم إلى العذاب درجة درجة بالإمهال، وإدامة الصحّة، وازدياد النّعمة.

وأملى لهم : أي أمهلهم ليزدادوا إثماً.

الكَيْدُ: ضرْب من الاحتيال لكونه في صورته حيث إنه سبحانه يفعل معهم ما هو نافع لهم ظاهراً، ومراده به عزّ وجلّ الضرر لما علم من خُبْث طبيعتهم، وتماديهم في الكفر.

متين : لا يدفع ولا يقهر.

مغرم : غرامة.

مثقلون : مكلفون حملاً ثقيلاً.

الغيب : المغيّبات، وقد يطلق على اللوح مجازاً لأنه محلٌّ لكتابة المغيّبات.

لِحُكْم ربك : هو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم.

صاحب الحوت : يونس عليه السلام.

مكظوم : أي مملوء غيظاً من كظم السِّقاء: إذا ملأه.

فاجتباه ربه : اصطفاه.

يزلقونك : يزلون قدمك فيرمونك مبالغة في عداوتهم حتى كأنها سرت من القلب والجوارح إلى النظر فعاد يعمل عمل الجوارح.

المعنى الإجمالي لسورة القلم

تصوير رائع في موقف الدفاع عن النّبيّ ﷺ، والهجاء الذميم بأحقر الصّفات لهؤلاء الذين يحاولون أن يزحزحوا النبيّ الكريم عن رسالته، وذلك

برميه بالجنون تارة، واستعمال اللين معه تارة أخرى.

انتقل القرآن الكريم بعد ذلك نقلة أخرى تتمثل فيما يأتي:

١ ـ تهديد أهل مكة وإصابتهم لعتوّهم وكبريائهم بالقحط الشديد وربط هذا التهديد بقصة أهل الجَنّة التي يعرفونها حق المعرفة عن طريق الأخبار المتوارثة حيث بغي أصحابها وطغوا، وتجاوزوا الحق إلى الضلال، والخير إلى الشر فمنعوا ثمارها عن الفقراء والمساكين فبعد أن كانت مثمرة يانعة أصبحت في لحظة قصيرة كالصريم، وهنا استبدّت بهم الحيرة، وغشيتهم الرهبة، وامتلك نفوسهم الخوف حيثما علموا أن قدرة الله تعالى لا يقف في طريقها شيء، لأن أمره تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون:

٢ ـ ومن خلال هذا الابتلاء ثابوا إلى رشدهم، واعترفوا بخطيئتهم، وقالوا: إنا لضالّون، ويا ليت الأمر يقف عند الضلال فقط، فقد يئست نفوسهم، وبلغ بهم التشاؤم إلى الغاية، فقالوا: إننا محرمون من كل خير، وتعلقت آمالهم بالله صاحب القدرة.

ومن هنا بعد أن بلغ اليأس مبلغه، وقف بينهم أرشدهم عقلاً، وأقواهم فكراً، وأعدلهم رأياً، ليقول لهم: إنكم لم تعملوا لله حساباً في تصرّفاتكم، لأنكم إن ذكرتم الله لما تجرّأتم أن تسيروا في هذا الطريق الشائك.

٣ ـ وهذه الصورة اليائسة قابلها القرآن الكريم بصورة أخرى تشرق بالأمل وتصفو بالإيمان صورة المتقين الذين يمتلكون جنات النعيم التي حرّمها الله على المجرمين، ولِمَ يحرّمها؟ لأنها العدالة التي تفرّق بين المسلم والمجرم، بين الطيّب والخبيث.

وهذه العدالة أمرٌ تعرفه الفطرة السليمة، ومع ذلك فقد تجرّدوا عن هذه الفطرة، وبالغوا في أحكامهم كأنهم تلقوْها من كتاب يدرسون فيه،

أو كأنهم أخذوا علينا عهداً أننا ننفّذ ما يرغبون فيه، وما تطمح إليه نفوسهم من الظلم والطغيان.

ثم يوجّه الله تعالى الخطاب لنبيّه عليه السلام، فيقول له: سلهم من صاحب هذا الفكر المعوجّ الخارج عن دائرة العقول؟ وهو توبيخ وتهديد، وإنكار لهذا الانحراف.

وسلهم أيضاً: هل لكم شركاء في هذه الآراء الفاسدة وخلطاء في هذا التفكير المعوجّ؟.

إن كان الأمر كذلك، فهاتوا هؤلاء الشركاء لنفضحهم كما فُضِحْتُم، ونكشف أمرهم كما كُشِفَ أمرهم.

٤ ـ ثم يعرض القرآن الكريم مشهداً من مشاهد يوم القيامة يوم يكشف عن ساق، يوم يحاولون أن يرجعوا إلى دنياهم مرّة أخرى ليسجدوا لله، وينقادوا إليه، ولكن هيهات هيهات، إنها الآخرة ولا رجعة فيها إلى الدنيا.

٥ ـ ثم يعود القرآن الكريم مرّة أخرى ناصراً نبيَّهُ، مهدّداً قومه بأسلوب يملأ النفس رهبة، وهو المتمثل في قوله تعالى: ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ وهو القرآن الكريم إننا نملي لهم ونمهلهم حتى نأخذهم أخذ عزيز مقتدر، لأنهم يستحقّون ذلك العذاب حيث لم يستمعوا إليك مع أنك لم تسألهم أجراً على هذا التبليغ، كأنهم يملكون الغيب ويسيطرون على مقاليد الكون.

٦ ـ وتختم هذه السّورة بدعوة الرسول عليه السلام إلى الصبر والثبات مذكّراً له بيونس الذي يئس من قومه، وهرب من رسالته، فالتقمه الحوت.

وإن ثباتك هذا مهما صوّبت إليه سهام عيونهم، فإنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا إليك، أو يؤثّروا فيك، لأن الله ناصرك ومؤيّدك.

* * *

الأساليب النّحويّة

في الآيات من ١ ـ ١٦

نون : في موضع نصب من وجهين:
أحدهما : أن يكون تقديره: إقرأ نون.
الثاني : أن يكون تقديره: أقسم بنون، فحذف حرف القسم، فاتصل الفعل به فنصب.

وعلى هذا الوجه الأخير يكون: ﴿ ما أنت بنعمة ربك ﴾ جواب القسم.
والباء الثانية في: «بمجنون» زائدة لتأكيد النّفي.
ومجنون خبر «ما».
والباء الأولى في قوله: بنعمة ربك للملابسة، والجار والمجرور «بنعمة ربك» في موضع الحال، والعامل فيها النّفي.

والمعنى: انتفي عنك الجنون في حال كونك مليئاً بنعمة ربك. وحاصل الكلام: أنت منزّهٌ عما يقولون.

بأيكم المفتون:
الباء زائدة ـ أو غير زائدة، والمفتون مصدر مثل المعقول أي بأيكم الفتون إلى الجنون ـ أو بمعنى: «في» أي في أي طائفة منكم الجنون؟

إنّ ربك هو أعلم:
استئناف لبيان ما قبله، وتأكيد لما تضمّنه من الوعد والوعيد.

«فيدهنون»: بثبوت النّون، لأن عطفه على: «تدهن» ولم يجعله جواب التمنّي.

﴿ أن كان ذا مال ﴾.

أن كان مفعول له، تقديره: لأن كان ذا مال، واللام تتعلق بفعل محذوف وتقديره: أيكفر لأن كان ذا مال.

ولا يجوز للام أن تتعلق بالفعل: «تتلى» لأن «إذا» مضافة إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا فيما قبل المضاف.

ولا يجوز أن تتعلق اللام بـ «إذا»، لأنه قال جواب الشرط، وجواب الشرط لا يعمل فيما قبل لفظ الشرط.

= الآيات من ١٧ إلى آخر السورة:

﴿ على حرد ﴾

جار ومجرور في موضع نصب على الحال، والتقدير: ﴿ وغدوا حاردين قادرين ﴾.

﴿ قادرين ﴾

حال أو خبر غدا.

﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾:

«ما» مبتدأ، و «لكم خبره» و «كيف» في موضع نصب على الحال، وعامله وصاحبه «فتحكمون».

لكم أيمان: مبتدأ وخبر، و «بالغة» صفة لـ «أيمان».

﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾

«يوم» منصوب والعامل فيه وجهان:

أ ـ أحدهما: أن يكون العامل فيه: «فليأتوا».

ب ـ والثاني: أن يكون العامل فيه فعلاً مقدّراً، وتقديره: واذكر يوم.

خاشعة: حال من المضمر في: «يدعون» أو من المضمر في: «يستطيعون».

أبصارهم: مرفوع بخاشعة.

وترهقهم ذلّةً تحتمل وجهين:

أ ـ النصب على الحال.

ب ـ أن تكون مستأنفة لا موضع لها من الإعراب.

فذرني ومن، مَنْ في موضع نصب، لأنه معطوف على ياء المتكلم في: «ذرني».

وهو مذموم: ابتداء وخبر في موضع نصب على الحال من المضمر المرفوع في: «لَنُبِذَ».

﴿ وإن يكاد الذين كفروا ﴾

إن بمعنى «ما» واللام بمعنى إلّا عند الكوفيين.

ومعناه: ﴿ وما يكاد الذين كفروا إلّا يزلقونك ﴾ وهي عند البصريين مخففة من الثقيلة، واسمها مضمر فيها، واللام للتأكيد، ولزمت هذا النوع لئلا تُشْبِه «إنْ» التي بمعنى «ما».

* * *

الأساليب البلاغيّة

من الآيات رقم ١ إلى رقم ٩٦

= إذا كان المراد بالقلم اللّوح المحفوظ، فالتعبير عنه بضمير الجمع للتعظيم.

= وإن كان مراداً به القلم الذي يكتب به البشر، فضمير الجمع لتعدّد هذه الأقلام.

= وإسناد الكتابة إلى القلم مجاز، لأن الذي يكتب هم الملائكة دون الناس.

= والتعبير عنه بضمير العقلاء لقيامه مقامهم.

وإن لك لأجراً: تقديم الجار والمجرور للاختصاص.

= حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿وما يسطرون﴾ وفي ﴿فستبصر ويبصرون ﴾، وفي ﴿ لو ندهن فيدهنون ﴾ وحذف المفعول إيجاز عندما يعرف السامع في ذهنه معنى هذا المفعول.

وحذفه أيضاً يجعل ذهن السامع ينطلق إلى هذا المفعول متخيّلاً ماذا يكون؟

وذكره يقلل من هذا الخيال، وتحديدُهُ يبدّد الحيرة في الذهن، والموقف يتطلّبها، ولهذا كان عدم ذكره أبلغ من ذكره.

= التذييل المؤكد في قوله تعالى: ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ والتذييل هو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها توكيداً لها، وهو قسمان:

أ ـ تذييل يجري مجرى المثال، ومثاله:

تزور فتى يعطي على الحمد ماله ومن يعط أثمان المحامد يُحْمد

ب ـ وجار غير مجري المثال كقوله:

لم يبق جودُك لي شيئاً أؤمِّلُهُ تركتني أصحب الدنيا بلا أملِ

= في قوله تعالى: ﴿فلا تطع المكذبين﴾، ﴿ولا تطع كل حلّاف﴾ نهيٌ مراد به التهييج والإلهاب حتى يصمم ويبالغ في عدم طاعة هؤلاء الحلافين الكذابين.

م همماز: معناه: عيّاب، وهو استعارة للسّان لأن الهمز أصله في اللغة: الضرب طعناً باليد أو بالعصا أو نحوها، ثم استعير للذي ينال بلسانه.

سنسمه على الخرطوم

الوسم على الخرطوم: كناية عن الإذلال.

والخرطوم كناية عن الاستهانة: لأنه لا يستعمل إلّا في الفيل والخنزير.

وفي الخرطوم أيضاً استعارة، لأننا شبهنا أنف المتكبر بالخرطوم الذي هو للحيوانات، ثم أتينا بجملة «سنسمه»، لأنها ملائمة للمشبّه وهو الخرطوم وهذا ما يسمّى في البلاغة بالترشيح والمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿ اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾[1]، فشبّهنا «اختاروا» بـ «اشتروا» وقرينة الاستعارة «الضلالة».

(١) البقرة: ١٦.

وإذا تأملنا الاستعارة نجد أنه ذكر معها شيء يلائم المشبه به، وهو: «فما ربحت تجارتهم».

* * *

= من الآيات رقم ١٧ إلى آخر السّورة.

= حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه في قوله تعالى: ﴿ فطاف عليها طائف ﴾.

= التضمين في قوله تعالى: ﴿أن اغدوا على حرثكم﴾ لأن «غدا» بمعنى: «بكر» تتعدّى بـ «إلي»، وعدّي هنا بـ «على» لتضمين الغدوّ معنى الإقبال.

= على حرد قادرين: تقديم الجار والمجرور «على حرْد» للحصر ورعاية الفواصل، لأنه يتعلق بـ «قادرين» أي وغدوا قادرين على المنع.

= القصر في قوله تعالى: ﴿ كذلك العذاب ﴾ و «أل» في العذاب للعهد أي مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة من الحرْ الشديد، وأصحاب الجنّة.

والقَصْر في البلاغة هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص.

ومن الطرق المخصوصة تقديم ما حقه التأخير كالآية وهنا يكون المقصور عليه المقدم، والمقصور هو المتأخّر.

= الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾.

= الاستفهام التعجّبي في قوله تعالى: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾.

= إطلاق الإيمان على العهود من إطلاق الجزء على الكل أو اللازم على الملزوم.

كشف الساق في قوله تعالى: ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ كناية عن شدّة الأمر، وصعوبته، وأصله تشمير الفتيات المخدّرات [أي المقيمات في خدورهن] عن سوقهن في الهرب، فإنهن لا يفعلن ذلك إلّا إذا عظم الخطب، واشتد الأمر، فيذهلن عن الستر لاشتداد الأمر.

= وتنكير ساق: قيل للتهويل.

= التعبير «بذي النون» أبلغ من التعبير بصاحب الحوت.

قال ابن حجر: لاقتضائها تعظيم المضاف، ولذلك نجد أنّ في معرض مدح يونس، قال تعالى: ﴿ وذا النون ﴾ وفي النَهي عن اتّباعه، قال: ولا تكن كصاحب الحوت، إذا النّون لكونه جعل فاتحة سورة أضخم وأشرف من لفظ الحوت.

نظرة عامة في الصّور الفنيّة

لسورة القلم

أوّلاً : رسم صورة لهذا المتجبرُ الطاغية، وقد لوّنت بألوان مثيرة كلها تدور حول كثرة الحلف، ضعف الشخصية، غير واثق من نفسه.

إنه رُسم في صورة حقيرة مشوّهة جمعت صفات الشر كلها، وتجسّدتْ في شخصه.

ثانياً : الجمل في النص متنوّعة:

منها : الخبريّة التي كثرت فيها أدوات التوكيد، من قسم وتقديم وتأخير.

والغرض منها أن يؤكد للمشركين صدق نبيّه عليه السلام وأنه معه وناصره.

ومنها: الإنشائية، وهي متمثّلة في النهي والتمني والشرط.

إنه تلوين متنوع في التعبير ربط بين عالم الحس والوجدان، بين العقل والإحساس، بين الفكر والخيال.

ثالثاً : الفواصل جاءت على النحو الآتي:

«ن» تكرّرت مرّات، و«ين» تكرّرت مرات.

وكلها تنتهي بحركة صوتية ممثلة في المدّ. والمدّ انسجام إضافي يتخلل الصورة فيكسبها جمالاً في الأداء، وروعة في التعبير.

(٧٨) سُورَةُ النَّبَإِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا أَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي
هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ
أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ
مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا
سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ
يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾

لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً
وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾
فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ
مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾
وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾
جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾
يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ
أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ
يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًۢا ﴿٤٠﴾

مشاهد من الدنيا والآخرة
سورة النبأ

عناصـــر:

= عرض لآيات الله في الأرض وفي السماء.
= تصوير مفصّل لنعم الله تعالى على الإنسان.
= تهديد بجهنم وما يتبعها من صفات تقشعر لها الأبدان.
= وصف للجنة وما يتبعها من صفات يستريح لها الإنسان.
= حديث عن يوم القيامة ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾.

* * *

مناسبة السّورة لما قبلها:

أ ـ اشتمالها على إثبات القدرة على البعث الذي كذب به الكفرة.
ب ـ تناسب في الجُمَل، فإن ما قبلها مشتمل على: «ألم نهلك الأولين ـ ألم ألم نخلقكم من ماء مهين الخ.
وفي هذه: ألم نجعل الأرض مهاداً إلخ.

* * *

المفردات اللغوية

النبأ العظيم : هو القرآن الكريم أو هو البعث وهو الأنسب للآيات.

يتساءلون : صيغة التفاعل في الأفعال المتعدّية لإفادة صدور الفعل عن

المتعدّد، ووقوعه عليه بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً.

كلّا حرف ردع وزجر.

مهاداً : المهد: الموضع الذي يتهيأ للصبي كالمهاد فمعْناهما واحد.

أزواجاً : مزدوجين: ذكراً وأُنثى ليتسنّى التناسل وينتظم أمْر المعاش.

سباتاً : السّبات: الموت، مشتق من السّبت بمعنى القطع.
وقيل: أي سكوناً وراحة، ويقال: سبتْ الرجل: إذا استراح، ومنه سمّي اليوم المعروف سبتاً لفراغ وراحة لهم فيه.

لباساً : يستركم بظلامه كما يستركم اللباس.

معاشاً : مصدر ميمي بمعنى العيش، وهو الحياة المختصّة بالحيوان، ووقع هنا ظرفاً مثل: آتيك خفوق النجم، وطلوع الفجر.

والمعنى جعلنا النهار وقت معاش أي حياة تبعثون فيه من نومكم، وهو مناسب لجعل السبت فيما تقدّم بمعنى القطع عن الحركة.

سبعاً شداداً: سبع سموات قويّة الخَلْق محكمة لا تسقط، فيها يمنحُكم المعاش.

وجعلنا : أنشأنا وأبدعنا.

سراجاً وهّاجاً : مشرقاً متلألئاً، والمراد به الشمس.

المعصرات : السحائب: وهي جمع معصرة من «أعصر» على أنّ الهمزة فيه للحينونة، أي حانت وشارفت أن تعصرها الرياح، مثل: أحصد: إذا شارف وقت حصاده.

ثجّاجاً: أي منصبّاً بكثرة، يقال: ثجّ الماء: إذا سال بكثرة، وثجّه أي أساله، فـ «ثجّ» ورد لازماً ومتعدّياً.

جنات : جمع جنّة، وهي كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض من الجَنّ، وهو السّتر.

ألفافاً : أي ملتفّةً تداخل بعضها ببعض، قيل: لا واحد له من لفظه مثل: الأوزاع للجماعات المتفرّقة المختلفة.

وقيل: جمع لُف بضم اللام، ولف جمع للفّاء فهو جمع الجمع.

وقيل: جمع لفيف بمعنى ملفوف، وفعيل يجمع على أفعال كشريف وأشراف.

الصّور : النفخة الثانية وهو بالضمّ: القرْن ينفخ فيه.

أفواجاً : أمماً، أي كل أمة بإمامامها.

فتحت السماء : انشقّت.

سراباً : أي ترى بعد تفتتها كأنها جبال وليست بجبال.

مرصاداً : اسم مكان، أي موضع رصْد وترقّب ويحتمل أن يكون صيغة مبالغة كمنخار، أي مجدّة في ترصّد الكفرة لئلا يشذّ منهم واحد.

مآباً : مرجعاً.

أحقاباً : الحقْب بالضمّ وبضمتين في القاموس ثمانون سنة أو أكثر، والدهر، والسّنة، وجمعه: أحقاب وأحقب.

أمّا الحقبة فهي مُدّة لا وقت لها، وجمعها حقِبَ كعِنبَ، وحُقُوب كحُبوب.

الحميم : الماء الشديد الحرارة.

الغسّاق : ما يقطر من جلود أهل النّار من الصديد.

ومادته: غسق عينه كضرب، وغِسق كسَمِع وغسقاناً: أظلمت.

وغسق الجرح غسقاناً: سال منه ماء أصفر.

لا يرجِون : لا يخافون.

كذابا : أي تكذيبا، وفِعّال بمعنى تفعيل في مصدر فَعَّل مطرّد شائع.

كتاباً : مصدر مؤكد لأحصينا، فإن الإحصاء والكتب يشتركان في معنى الضبط.

مفازاً : مصدر ميمّي أو اسم مكان.
أي إن الّذين يتّقون لهم فوز أو نجاة أو موضع فوز أو موضع نجاة.

حدائق : جمع حديقة.
كواعب : جمع كاعب، وهي المرأة التي تكعب ثدياها واستدار مع ارتفاع يسير، ويكون ذلك في سن البلوغ.

أتراباً : أي لدات ينشأن معاً تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، واللِّدة كعِدَة: التّرب.

كأساً دهاقاً : أي مترعة، يقال: دهق فلان الحوض وأدهقه أي ملأه.

لغواً : الكلام الذي لا يعتّد به.
ولا كذّاباً : تكذيباً.
عطاء : تفضّلاً وإحساناً.
حساباً : مصدر أقيم مقام الوصف أو بولغ فيه.
الرّوح : قيل: خلق أعظم من الملائكة، وأشرف، وقيل: هم أشراف الملائكة، وقيل: هو جبريل عليه السلام.

ذلك : إشارة إلى يوم القيامة.
عذاباً قريباً : هو عذاب الآخرة.

* * *

الأساليب النحويّة

عن النبأ: جار ومجرور متعلق بيتساءلون، وعن الثانية بدل من الأولى بإعادة الجار. «الذي» يحتمل الجرّ، والنصب، والرّفع.

أزواجاً : حال، أي متجانسين.

يوم ينفخ في الصّور : بدل من يوم الفصل، أو عطف بيان مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله.

وفتحت السماء : عطف على: ينفخ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق.

للطاغين : متعلّق بمضمر، إمّا نعت لـ «مرصاد» أي كائناً للطاغين، وإما حال من قوله: مآباً، فقدّم عليه.

جملة : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾ حال من الضمير المستكنّ في: «لابثين».

جزاء : مفعول مطلق منصوب بفعل مقدّر.
وفاقاً : صفة لـ «جزاء».
كلّ شيء : منصوب على الاشتغال.
كتاباً : مصدر مؤكد لأحصينا.
حدائق : بدل اشتمال من «مفازاً» على جعل «مفازاً» مصدراً ميميّاً.

وتعرب بدل بعض إذا كان مفازاً: اسم مكان.
وأعناباً : معطوف على: «حدائق» قَبْلَه، وهو بعض منها إذا أريد به الكرْم.
جزاء من ربّك : مصدر مؤكد منصوب بمعنى أن للمتقين مفازاً، فإنه في قوة قولك: جازى المتقين جزاء.

عطاء : بدل من جزاء.
حساباً : صفة لعطاء.
رب السموات والأرض : بدل من لفظ «ربك».
الرحمن : صفة لربك أو لرب السموات على الأصحّ، لأنه يجوز وصف المضاف إلى ذي الألف واللام بالمعرّف بها.

لا يملكون منه خطاباً : استئناف مقرر لما أفادته الربوبيّة العامة من غاية العظمة، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحد قدرة عليه.

يوم يقوم الرّوح : ظرف لقوله تعالى: ﴿ لا يتكلمون ﴾.
إلّا من أذن له الرحمن : بدل من ضمير: «لا يتكلمون».
ذلك اليوم الحق : مبتدأ وخبر، والحق: صفة.

لا يملكون : مرجع الضمير راجع إلى المشركين.
ما قدّمت يداه : «ما» استفهاميّة منصوبة لـ «قدّمت» أي ينظر أي شيء قدمت يداه؟

ويحتمل أن تكون «ما» بمعنى الذي، وتنصبُ بينظر، أي ينظر إليّ الذي قدمت يداه.

* * *

الأساليب البلاغيّة

= الإيضاح بعد الإبهام في قوله تعالى: ﴿عن النبأ العظيم﴾ وهو بيان لشأن المسئول عنه، وتوجيه أذهان السامعين نحوه، وتنزيلهم منزلة المستفهمين عن أمر خارج عن قدرة البشر جدير بأن يسأل عنه.

= المبالغة بجعل الصلة جملة اسمية للدلالة على الثبات في قوله تعالى: ﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ أي هم راسخون في الاختلاف فيه.

= تقديم الجار والمجرور: «فيه» للاهتمام ورعاية الفواصل.

التغاير بين التعبيرين: «كلّا سيعلمون، ثم كلا سيعلمون فـ «ثم» للتفاوت في الرتبة، فكأنه قيل لهم: في يوم القيامة ردع وعذاب شديدان، بل لهم يومئذ أي في يوم القيامة عذاب أشد.

وبهذا الاعتبار صار كأنه مغاير لما قبله فعطف عليه.

= الاستفهام التقريري في قوله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾، وهو استئناف مسوق لتحقيق النبأ المتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بالقدرة الإلهية.

= وفيها أيضاً تشبيه بليغ.

= الالتفات إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وخلقناكم ﴾.

= تشبيه بليغ في قوله تعالى: ﴿ نومكم سباتاً﴾.

= تشبيه بليغ في قوله تعالى: ﴿ الليل لباسا ﴾.

= تشبيه السماء بالقباب في قوله تعالى: ﴿ وبنينا ﴾.

= التأكيد بـ «إن» في قوله تعالى: ﴿إن يوم الفصل﴾ وهو بيان سرّ تأخير ما يتساءلون عنه، ويستعجلون قائلين: متى هذا الوعد؟.

= التعبير عن المستقبل بالماضي في قوله تعالى: ﴿كان ميقاتا﴾.

= حذف الجمل ثقة بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بغاية سرعة الإتيان في قوله تعالى: ﴿ فتأتون أفواجاً ﴾ أي فتحيون فتبعثون من قبوركم فتأتون إلى الموقف.

= تشبيه بليغ بين الجبال والسّراب في قوله تعالى: ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾، فإن كلا من الجبال والسّراب يرى على شكل شيء، وليس هو بذلك الشيء أو يكون وجه الشبه التخلخل إذ تكون بعد تسييرها غباراً منتشراً.

= إسناد الرصد إلى جهنم في قوله تعالى: ﴿كانت مرصادا﴾ مجاز.

= الالتفات في قوله تعالى: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلّا عذاباً﴾ للمبالغة لتقدير إحضارهم وقت الأمر ليخاطبوا بالتقريع والتوبيخ.

= في قوله تعالى: ﴿إن للمتقين مفازاً﴾، استئناف مقرر لما أفادته الربوبيّة العامّة من غاية العظمة، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحد مقدرة عليه.

* * *

المعانـــي

بدأت السّورة بالتساؤل الذي لا يقوم على انتظار الجواب، وإنما يقصد

به العجب من هؤلاء القوم الذين ضلت عقولهم عن هذا النبأ العظيم. . .

ولم يذكر حقيقة يوم القيامة، وإنما ذكر صفة هذه الحقيقة، وأنها نبأ عظيم يثير في نفوسهم هول ذلك اليوم ووقعه، لأنه نبأ عظيم.

التهديد لهؤلاء الذين ينكرون البعث بأنهم سيعلمون عما قريب حقيقة ما ينكرون. وأكد هذا التهديد بتكراره مرّة أخرى حينما قال تعالى: ﴿ كلاّ سيعلمون، ثم كلا سيعلمون ﴾.

ثم بعد ذلك أراد القرآن الكريم أن يزيح عن عقولهم الضلال، ويبعد عن نفوسهم الشك، فقدم لهم مشهداً من آيات الله في الكون، في السماء، في الأرض، في المخلوقات ليلمسوا العظة بأنفسهم، فيخضعوا لقدرته، ويشهدوا بعظمته ويقلعوا عن الشك في يوم حسابه.

وبعد أن قدّم لهم الأدلّة الدامغة والحجج الساطعة والبراهين القاطعة.

بعد أن مهّد لهم هذا التمهيد العريض ليجيلوا النظر، ويدققوا الفكر شدّهم بعد ذلك إلى يوم القيامة من جديد لتكون الإجابة عن هذا السؤال الذي تعبوا من ترداده ذات أثر في نفوسهم بعد هذه الجولة في محيط القدرة الإلهيّة المبدعة، فعرض عليهم مشاهد يوم القيامة، بعد أن عرض عليهم مشاهد قدرته التي يحسّونها بأنفسهم، وينظرون إليها بأعينهم، ويلمسون وجودها بأيديهم.

ومن هنا يربطون الشاهد بالغائب، إن كانوا ذوي عقل فيؤمنون بهذا اليوم، وإيمانهم يقتضي أن يبتعدوا عن الانحراف، ويرتبطوا بربهم الذي خلقهم.

وبعد هذا المشهد الرائع يأتي مشهد آخر وهو مشهد جهنم، هو مشهد مخيف كأنهم يرونه بأعينهم مشهد يشير إلى جهنم التي تنتظر الطاغين، ليلبثوا فيها الأيام الطوال.

ويعقب هذا المشهد المخيف مباشرة مشهد آخر جميل مشهد الجنة التي أعدّت للمتقين.

وقد ذكر القرآن الكريم ألواناً من هذا النعيم الذي جاء ذكره بعد ذكر جهنم، ليكون وقع هذا النعيم مؤثراً في نفوس المؤمنين، فيزدادوا إيماناً بربّهم، وعملاً بدينهم، وسيراً على هدى قرآنهم.

والمشهد الأخير، مشهد الختام مشهد تملؤه الهيبة ويحيط به الإجلال حيث يقف جبريل عليه السلام والملائكة في خشوع وخضوع، وقد غشيتهم السكينة وعقد ألسنتهم الموقف، وأحاط بهم الصمت والسكون، لأن عظمة الله في هذا اليوم العظيم تتجلّى على عباده، فيستشعرون الخوف والرهبة، لا ينبسون بكلمة، ولا يهمسون بلفظة، اللهم إلّا من أذن له الرحمن ليشفع ويتذلل في خضوع ومسكنة.

وكما بدأت السّورة بالتهديد والوعيد ختمت بتهديد أشد، ووعيد أعظم وهو المتمثل في إنذار الله تعالى عباده ليعملوا لهذا اليوم حساباً، فمن قدّم سعد ومن أحجم عن طاعة الله هلك، ولسان حاله في هذا الموقف العظيم الرغبة في أن يعود تراباً غير مسئول.

* * *

الألفـــاظ

الألفاظ في هذه السّورة متنوعة فهي بالنسبة للكافرين تتميز بالجرْس الشديد، والفواصل القصيرة والتهديد والوعيد.

ففي الألفاظ: جهنم ـ مرصادا ـ للطاغين ـ حميماً ـ غسّاقاً كلها ألفاظ تتناسب مع جرْم تفكيرهم وضلال عقولهم حينما ينكرون يوم القيامة، وهو يوم لا بُدّ آت وإتيانه ليس ببعيد، بل إنه منزل منزلة القريب المشاهد.

فالكلمات إذاً تقرع آذانهم بالحقيقة، وتسيطر على نفوسهم بالدليل، وتبين خطأ رأيهم بالواقع.

والألفاظ بالنسبة للمؤمنين تطالنا بالهدوء وتعرض في صور المتعة التي ترتاح إليها النفس وتأنس إلى وقعها الأذن، ونفتح لها نفس المؤمن فيسري فيها التعبير كأنها النسيم العليل الذي يبدّد حرارة الجوّ ويزيل سموم الرّياح التي تدمر كل شيء، ففي الألفاظ: مفازاً ـ أعتاباً ـ تواعب أتراباً ـ كأساً دهاقاً كلها كلمات ناعمة، وألفاظ نديّة يطمئن إليها السمع، وتسعد بها النفس.

وفي نهاية السّورة تعود الألفاظ مرّة أخرى مملوءة بالسكينة والوقار، حاملة معنى الإجلال والتعظيم، إنه يوم القيامة حيث تخشع النفوس، وتنكس الرؤوس هيبة وإجلالاً.

السموات والأرض وما بينهما ـ كل المخلوقات تغشاها السكينة، ويلوذ بها الصمت، وتتعلّق بالأمل لتفوز بالنعيم، وتطفر بالجنّة.

ولما بدأت السورة بالتهديد الصريح المتمثل بالألفاظ القوية في قوله تعالى: ﴿ كلا سيعلمون ﴾ الخ ختمت بالإنذار الخطير الموجه للناس جميعاً بألفاظ ذات جرْس قوي، ووقع شديد، وفي هذه الحالة يلتفت المرء يميناً ويساراً ليرى ما قدّمت يداه، فيتعلّق بالنّجاة، أما الذين ضاعت أعمالهم، وتحولت إلى رماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف فيقولون في حسرة ألم يا ليتنا لم نكن، بل يا ليتنا كنّا تراباً لا يبعث.

* * *

بعض المشكلات التفسيرية في سورة النبأ

في قوله تعالى: ﴿ جزاء من ربك عطاء حسابا ﴾ كيف يكون الشيء الواحد جزاء وعطاء، وذلك محال، لأن كونه جزاء يستدعي ثبوت الاستحقاق وكونه عطاء يستدعي عدم الاستحقاق، والجمع بينهما متناف؟

الجـــواب

والجواب: هو أن الاستحقاق ثبت بحكم الوعْد، لا من حيث أن الفعل

يوجب الثواب على الله، فذلك الثواب نظر فيه إلى الوعد المترتب على ذلك الثواب نظر فيه إلى الوعد المترتب على ذلك الفعل، وفي هذه الحالة يكون جزاء.

ونظراً إلى أنه لا يجب على الله لأحد شيئاً ففي هذه الحالة يكون عطاءً.

* * *

إعـــراب

سورة والضحى (مكية، وآياتها إحدى عشرة)

والضُّحَى. واللّيل إذا سَجَى. ما ودّعك ربُّك وما قَلَى. وللآخرةُ خيرٌ لَكَ من الأُولَى. ولسوف يُعطيكَ ربُّكَ فترْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوى. ووجَدَك ضالاً فهدى. ووجَدَك عائلاً فأغْنى. فأمّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ. وأمَّا السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ. وأمّا بنعمة ربّك فحدِّثْ.

إعراب هذه السورة من كتاب

(إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه)[١]

طبع دار الكتب المصرية

والضحى : جرّ بواو القسم.

والليل : نسقٌ عليه[٢].

إذا : ظرف وقت.

سجا : فعل ماضٍ، والمصدر: سجا يسجو سُجُوًّا فهو ساج ويقال: ليل ساج: إذا سكنت ريحه، واشتدت ظلمته. وبحر ساج: إذا سكن. والساج أيضاً: الطيلسان الأخضر، وجمعه: سيجانٌ.

ما ودَّعك ربّك : (ما) جحد[٣] هنا، وهو جواب القسم.

---

(١) هذا الإعراب بتصرّف. (٢) أي عطف نسق بالواو. (٣) أي حرف نفي.

و (ودع) فعل ماض، والكاف اسم محمد ﷺ في موضع نصب.

و (ربك) رفع بفعله.

ومعنى **وما قلى** : ما أبغض. يقال: قلاه يقليه: إذا أبغضه.

ويقال قلاه يقلاه بفتح الماضي والمستقبل.

وليس في كلام العرب فَعَل بفتح الماضي والمستقبل فيه ممّا ليس فيه حرف من حروف الحلق إلا قَلى يَقْلَى، وجَبى يجْبىَ، وسلىَ يَسْلَى وأبَى يأبَى، وركَن يركَن.

وأمّا قوله: قَلَوْت البُسْرَ والسَّوِيق فبالواو، والمصدر: الْقَلْو.

وأمّا القِلْو: فالحمار.

وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى : اللام لام التأكيد. و (الآخرة) رفع بالابتداء و (خيْر) خبر الابتداء. و (لك) جر باللام. و (الأولى) جرّ بـ (من). والهمزة في أوّل (آخرة) ألف أصليّة فاء الفعل، والثانية ألف مجهولة، لأن (آخرة) وزنها: فاعلة.

وألف (أُولى) فاء الفعل أيضاً، لأن وزنها فُعْلى، فأوّل وأُولى مثل: أكبرٌ وكُبْرى، ولا علامة للجرّ لأنها اسم مقصور.

ولسوف : اللام لام التأكيد و (سوف) تأكيد للاستقبال.

و **يعطيك** : فعل مستقبل والكاف في موضع نصب.

ربك : رفع بفعله.

فترْضَى : نسق بالفاء على ما قبله.

ألم : الألف ألف استفهام لفظاً ومعنى، ومعناه: التقرير.

يجدك : جزم بلم، والكاف في موضع نصب.

يتيماً : مفعول ثانٍ. واليتيم في اللغة: المنفرد.

فآوى : (أوى) فعل ماض، والفاء جواب (ألم) وإن شئت نسق.

والمصدر: آوى يُؤْوي إيواءً ممدود. فالألف الأولى ألف قطع. والثانية

قاء الفعل أصلية. والأصل: أأْوى، فاستثقل الجمع بين همزتين فليّنوا[١] الثانية. آوى فهو مُؤْوٍ. والمفعول به[٢] مُؤْوىً، فهذا فعل يتعدى. فإذا كان الفعل لازماً قَصُرَت الألف فقلت: أويْتُ إلى فراشي آوى أُوِيّاً فأنا آوٍ مثل قاض، واسم المفعول: مأويٌّ إليه مثل قوله تعالى: ﴿ كان وعدُهُ مأتيّاً ﴾[٣] فالأمر من الأول آوِ يا زيد مثل: آمِن. ومن الثاني إيوِ مثل: إيت.

ووجدك ضالاً : وجد فعل ماضي، والمستقبل يجد بحذف الواو والأصل: يَوْجِد، فسقطت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة مثل وزن يزن، ووعد يَعِد، ووجب يجب؛ والكاف مفعول بها. (ضالاً) مفعول ثان.

فإن سأل سائل فقال: أكان رسول الله ﷺ ضالاً قبل ذلك؟ فقل: حاشاه من ذلك. وفي ذلك أقوال: أحدهما أي وجدك يا محمد بين قوم ضُلّال فهداهم الله بك.

وقال آخرون: ضالاً عن النبوّة أي غافلاً فهداه الله لها.

وقال آخرون: ضل ذات يوم عن عمه أبي طالب فحزن ثم وجده.

وقال آخرون: هذا مثل قوله: ﴿ وعَلّمك ما لم تكن تعلم ﴾[٤].

فأمّا الضلال الذي هو ضدّ الإيمان فحاشاه ﷺ أن يكون ضلّ طرْفة عين. ألم تسمع إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿ والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى ﴾[٥] (عائلاً) مفعول ثان. والعائل: الفقير ها هنا...

تقول العرب: عال الرجل يعيل عيْلاً فهو عائل؛ إذا افتقر، وينشد.

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغنيُّ متى يَعيلُ

وعال يعول : إذا جار. قال الله تعالى: ﴿ ذلك أدنى ألاّ تعولوا ﴾[٦].

---

(١) أي قلبوا.
(٢) أي اسم المفعول.
(٣) مريم ٦١.
(٤) النساء: ١١٣.
(٥) النّجم: ١، ٢.
(٦) النساء: ٣.

وأعال يُعيل : إذا كثر عياله.

فأغنى : نسق عليه. ومعناه: فأغناك، غير أن الكاف حذفت لأن رؤوس الآي على الياء.

فأمّا اليتيم : فأمّا إخبار فهو في معنى الشرط والجزاء، فلذلك جاء جوابه بالفاء، (اليتيم) مفعول به.

فلا : الفاء جواب (أمّا) و (لا) نهي.

تقهر : جزم بالنهي.

وأمّا السائل فلا تنهر : نسق على ما قبله، وإعرابه كإعراب الأول.

وأما بنعمة ربك فحدّث : الفاء جواب (أمّا) و (حدّث) أمر عن الفراء قال: قرأ عليّ أعرابيّ: وأمّا بنعمة ربك فخبّر، قال: قلت: إنما هو فحدِّث، قال: حدِّث وخبّر واحد.

قال أبو عبد الله: اختلف أهل العلم في هذا، فقال قوم: ما قريء على الشيخ قلت فيه (أخبرنا) وما أملاه عليك قلت فيه: حدّثنا.

التصوير الفني

من التصوير الفني
في القرآن الكريم
نصان مصوران من كتاب
الطراز ليحيى بن حمزة العلوي

(١)
الأسرار البلاغية
فـــي آية قرآنيـة

بسم الله الرحمن الرحيم: قولهُ تعالى « إِن ربكمُ اللهُ الذى خلَقَ السموات والأرضَ وما بينهما فى ستّة أيام ثمَّ أستَوى على العرش يغشِى الليلَ النهارَ يَطلُبُهُ حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسَخَّراتٍ بأمْرِهِ، ألاَلهُ الخَلْقُ والأمْرُ، تبارك اللّهُ ربُّ العالمين[١].

فلينظر المتأمّلُ فى هذه الآية العجيبة مع اشتمالها على العُذُوبة فى ألفاظها المفردة، والسلاسة فى تراكيبها، والنظامِ العجيب، والتأليف الأنيق، والأسلوب البديع، حتى لا تكاد لفظةٌ واحدةٌ تخلو عن ملاحظة البلاغة، ومواقع الفصاحة، وكيف احتوت على التنبيه على أسرار عظيمةٍ ومعانٍ فَخْمَةٍ على أسهل نظام وأيسره، وأتمّ بيانٍ وأكملِه، ولنُشِرْ الى شيء من ذلك من الأمور الظاهرة

(التنبيه الأول)

فى قولهِ « إِن ربّكم الله » صَدَّرَ الجملة الابتدائية، بإِنّ

---

(١) الأعراف: ٥٤.

المؤكدة ، لتدلّ على إيضاح الجملة وتحقيقها فى مبدإِ الأمر ومَطْلَعِهِ ،ثم قال « ربكم » يشير بذلك الى الإبداع ، والحدوثِ فيهم وأنهم مخلوقون مَرْبُوبُون ، وأنهم مندرجون تحت وُجود الممكنات ، داخلون فى حيّز المكوّنات ، وأنهُ لهم ربٌّ ، ومالكٌ لأمورهم وتصاريف أحوالهم ، لا يملكها أحد غيرُهُ ، ولا يقدر عليها سواهُ ، وصدّر الجملة بذكر الربوبية إشارة الى عظم الاعتناء بذكرها وقطعاً لاعتقاد مَنْ يعتقدُ خلافَ ذلك ، وتنبيهاً منهُ تعالى على استحقاقهِ لحقيقة الالهية ، من حيثُ كان مالكاً لأزمّةِ الأمور ، ومقاديرها ، ومَنِ لا يكون بهذه الصفة فإنهُ لاحظّ لهُ فيها،ولا يكون مستحقاً لها بحال ، وحكَم على الرّبوبيّة بالإلهية ، حيث جعل « ربّكم » مبتدأ وقولهُ « الله » خبرهُ ، إشارةً الى أن كلّ مَن كان موصوفاً بالرّبوبية ، فإنهُ مستحق للإلهية لا محالة ، لأن استحقاقهُ للإلهية إنما يكونُ إذا كان منعِماً بأُصُول النِّعَم ، والربُّ هو المالكُ ، ومَنْ كان مالكاً للشيء فلهُ التصرّف فيهِ ، ومَن ملك الشيءَ كان مستحقاً لإعطائهِ ولهُ من أصُول النعم وفروعها ، فلهذا قال « ان ربكم الله » ولم يقل : إن الله ربكم ملاحظةً لما ذكرناهُ ، ويشير بهذا النظام والتأليف الى نُكتةٍ لطيفة ، وهى أن الإلهية أعمّ من الرُّبوبية ، والرّبوبيّة أخصّ منها ، جرياً على قانون القياس فى

العربية ، من أن خبر المبتدإ لابدّ من أن يكون أعمّ منهُ ، ولهذا جاز أن يُقال : الإنسان حيوانٌ ، ولا يقالُ . الحيوان إنسانٌ ، فالإلهيةُ أعمّ من الربوبيـة ، فالربوبية على الحقيقة لا يستحقها إلاّ هو ، لأن معناها لا يصلح إلاّ فيهِ ، وأمّا الإلهيةُ وهى استحقاقُ العبادةِ ، فقد شاركهُ فيها غيرُهُ ، زعماً أن غيرهُ يستحقّ العبادة ، فأما الربوبيـة وهى الملك ، فإنهُ لا يخلص على الحقيقة إلاّ لهُ لكونهِ مالك المكوّنات دون غيرهِ ، ومن عجيب ما تضمّنهُ هـذا التنبيهُ أنهُ جمع الوصفين منبّهاً على عظم القهر والاستيلاء ، فلهذا كان ربّاً مالكاً ، وعلى كونهِ مختصاً بصفات الجلال ، فلهذا كان إلها

(التنبيه الثانى)

فى قولهِ تعالى « الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام » لمّا خاطبهـم بالخطاب الدالّ على نهاية الملاطفة لهم حيثُ أضاف نفسهُ الى نفوسهـم بقولهِ « ربكم الله » لما لهم من الاختصاص بهِ حيثُ كان مالكاً لأمورهم ومدبّراً لأحوالهم ، ولما لهُ من الاختصاص بهم ، حيث كان منعماً بالخلق ، والايجاد ، والتكوين ، والرحمة ، واللطف ، فلهذا حصلت الإضافة منبّهة على هذا المعنى ، ودالة عليـهِ ، ثم عقّبَ ذلك بقوله « الذى خلق السموات والأرض » وإنما خص السموات والأرض ، لما فيهما من باهر القدرة ، وعظم

الملكوت ، ولهذا قال تعالى « خَلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خلقِ النَّاسِ » وقدَّم السموات لأنها من أعظم المخلوقات ، ألا ترى الى قولهِ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات . وقولهِ « وكذلك نُرِى ابراهيم مَلَكُوتَ السمواتِ» ولما كانت مختصة به من الإحكام البديع والانتظام الباهر ولما كانت مكاناً لأشرف المخلوقات وهم الملائكة ، ولما تميّزت بهِ من كونها موضعاً للعبادة ، والتقديس ، والتمجيد ، وأنواع العبادات كلها ، ولكونها محطاً للرحمة ، ونفوذ الأوامر والأقضية ، والتدبيرات ثم عقّبها بذكر الأرض مشيراً الى عظم منافعها وكونها متصرّفاً للخلق ، وبساطاً ممهّداً للتصرفات ، واستصلاح الاقوات من الزروع والثمار ، والفواكهِ وأنواع المعادن ، وغير ذلك ثم قال « وما بينهما » يشير بهِ الى مَهَابِّ الريح ، وتصاريفها من أجل إصلاح الزروع ، وتحريك السفُن ، وجرى السحاب لإرسال الأمطار ، وطلوع الشمس والقمر ، من أجل الإضاءة والإنارة للعالمين ، والنجوم للاهتداء فى ظُلُمات البرّ والبحر ، ثم إيراده عقب قولهِ « إن ربكم الله » على جهة التعليل لاستحقاقهِ للربوبية والإلهية فكأنهُ قال : وإنما كان ربّاً لكم ، وإلهاً ومستحقاً لهاتين الصفتين من أجل أنهُ خالق السموات والأرض وما بينهما ، فإن مَنْ هذه حالهُ فإنهُ مستحقٌ لا محالة لأن يكون ربّاً وإلهاً ، فالتكوين فى هذه الأمور الثلاثة فيهِ دلالة على أنهُ

لا بدّ من موجد وقادر، ومكوّن، لأن من المحال فى العقول أن حصول الشيء بعد أن لم يكن لا بدّ لهُ من قادر، وموجِد، فمطْلَقُ الإيجاد والتكوين، دالاّن على القادرية، والخلقُ وهو التقديرُ فيهِ دلالةٌ باهرة على الإتقان، وهى العالميّة ثم قولهُ . « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض» فيهِ تنبيهٌ على الوحدانية، لأن مَن هذه حالهُ فى التكوين والإيجاد لا يكون إلا مختصاً بالإلهية والربوبية دون غيرهِ، لما قد تقرّر ببرهان العقل استحالةُ مكوّن لهذه الاشياء سواهُ فكأنهُ قال . إن ربكم الله الذى مَنْ شأنهُ خلْقُ هذه المكوّنات الباهرة لاربَّ ولا إله لكم غيره، ثم لما كانت دالة على القادرية، والعالمية، كما أشرنا اليهِ فهى دالة على الوجود بلا أوّلية، لأنه لو كان معدوماً لاستحال منهُ الإيجاد لهذه المكوّنات، لأنهُ لا فرق فى مسالك العقول بين إسنادها الى العدم وبين إسنادها الى مؤثر هو عدمٌ، وأنهُ لا أولية لوجوده، إذ لو كان لهُ أوّلٌ لاحتاج الى مؤثر فإما أن يفتقر كل واحد منهما الى صاحبهِ، وهو الدّوْرُ، أو يحتاج الى مؤثّرٍ ومؤثِّرُهُ الى مؤثّرٍ، الى غير غاية، وهو التسلسل، وكلاهما محالٌ فى العقل لأمور قرّرناها فى الكتب العقلية ثم قال « فى ستة أيام » فليس الغرض ذكر أدنى العدد، فأقَلُّهُ ساعة واحدة، ولا الغرض الإشارة الى أكثر الأعداد فهى بلا نهاية، وبين هذين وسائط من مراتب الأعداد كثيرة

ومَنْ عَرف باهر القدرة علم قطعاً أنّ خلق هذه المكوّنات ممكن فى لحظة و حدة ، ولكنِ الغرضُ بالتقدير إشارة الى قولهُ سرّ ومصلحةٍ استأثر اللهُ بعلمها ومصْداقْ ما قلناهُ قولهُ تعالى « إنما أمْرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول لهُ كن فيكون »

(التنبيه الثالث)

قولهُ « ثم استوى على العرش » ظاهرُ الآية دال على أن الاستواء إنما كان بعد خلق السموات والأرض وإكمالِ أحوالهما ، فأمّا خلقُ العرش فليس فى ظاهر الآية ما يدلُّ على تعيُّن وقت خلْقه فبَقِي الامرُ فيهِ على الاحتمال حتى يدلّ دليلٌ شرعىّ على ذلك ، والعرشُ والكرسىُّ من أعظم المخلوقات ، لما خصّهما الله تعالى من عِظم الخلق ، ولما اشتملا عليهِ من الأسرار الإلهية ، والحِكم المصلحية التى لا يحيط بعلمها إلاّ الله تعالى ،

والاستواءِ فيهِ وجهان ، أحدهما أن يكون بمعنى الاستيلاء يقال . فلانٌ الملكُ قد استوى على ملكه ، أى استولى عليهِ وأحاط بهِ فلا يشذّ عنهُ منهُ شىء ، وثانيهما أن يكون الاستواء على حاله من غير تأويل من قولهم . الاميرُ استوى على سرير مملكتهِ أى تمكن فيهِ ، وتَحْقيقهُ ، قعد عليهِ قعود المتمكن المستقرّ ، لا قعود القلق المنزعج ، وكلاهما حاصلٌ فى حق الله تعالى ، فعلى المعنى الأول أن الله استولى على العرش وملكه

وأحاط بهِ علماً واقتداراً ، وعلى الوجه الثانى يكون على جهة التخييل كقوله تعالى « يدُ الله فوق أيديهم » وتقريرُ التخييل، أن الحالة الحاصلة للملكِ فى الاستقرار والتمكن على تَختِ مملكته وسريرهِ ، هى حاصلة لله تعالى على عرشهِ ، كما فى قولهِ تعالى « بلْ يَداهُ مَبسُوطَتَان » كما سنقررهُ فى التخييل ونوضح أمثلتهُ بمعونة الله تعالى ،

وأتى بثمّ ، دون الفاء ليدلّ بها على التراخى، ولأن نظام الآية معها يكون أسلس وأسهل والسَّبْكُ بها أتمّ وأعجب ، وهذا يذوقهُ مَن جاد ذوقهُ وَسلِم طبعهِ عن عَجرَفَةِ الكلام ، وزال عن العُنجُهانية فى القول ،

(التنبيه الرابع)

قولهُ « يغشى الليل النهار يطلبهُ حثيثا » ظاهرُ الآية ههنا دالّ على أن الغاشى هو الليلُ لقولهِ تعالى « والليل إذا يغشى » فالليل إذاً غاشٍ للنهار يطلبهُ ، فهذا هو الظاهر من الآية ويحتمل أن يكون الغاشى هو النهار ، وأن الغشيان مضافٌ اليهِ دون الليل ، وأن الليل لا يغشى النهار ، بخلاف التكوير فى قولهِ تعالى « يُكوّرُ الليل على النهارِ ويكوّرُ النهار على الليل » وبخلاف الإيلاج فى قولهِ تعالى « يُولِجُ الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » فإن التكوير والإيلاج

يصلح أن يكون فى كلّ واحد منهما كما فى ظاهر هاتين الآيتين ، والسرُّ فى ذلك هو أن التكوير هو الجمع ، يقال . كوّر الليل ، اذا جمعهُ ومنهُ كارةُ (١) القصار ، والإيلاجُ هو الإدخال يقال . ولج فى بيتهِ ، إذا دخل فيهِ ، وهذان المعنيان يصلحان فى كلِّ واحد من الليل والنهار ، لأن الليل يُجمع على النهار كما يُجمع النهارُ على الليل ، وهكذا الإيلاج ، فإن الليل يدخل فى النهار ، كما يدخل النهار فى الليل . بخلاف الغشيان ، فإنهُ مخصوص بالنهار ، والسرُّ فى ذلك هو أن النور أمرٌ وجودى محقَّقٌ ، والظلمةُ أمرٌ عدمىّ ، وحقيقتُها آئلة الى أنها عدمُ النور ، فهكذا تقول : الليل حقيقة آئلة الى عدم الإضاءة ، والنورُ ، حقيقة آئلة الى حصول الإضاءة والإنارة ، وإذا كان الأمر كما قلناهُ من ذلك صحّ وصف النهار بالغشيان لظلمة الليل . لأنهُ يطلع بالإنارة فيغشى الليل بإذهابهِ ، ووصفُ النهار بكونهِ غاشياً استعارة حسنة ، إذا الغشاء هو الغطاء فنَزَّلهُ أعنى النهار فى إذهابه لظلام الليل ، منزلةَ مَن يغطّى الشيء بالغشاوة ويسترهُ ، لأنهُ يذهب ظلمتهُ ويزيلها بطلوعهِ ، ويمحوها بإنارتهِ ،

ويجوز أَن يكون من باب التشبيه ، ولهذا فإنك لوأظهرت أَداة التشبيه لحسُنَ ذلك فتقول . النهار يُذهب

(١) الكارة . ثوب يجمع فيه القصار الثياب ويشده ثم يحمله على ظهره

ظلمة الليل عند غشيانهِ كالثوب يغشى جسد الانسان ويشتمل عليهِ عند ارتدائهِ بهِ ، وتوجيههُ على جهة الاستعارة ألطف بمعناهُ ، وأرق لألفاظهِ من التشبيه لأن الاستعارة فيهِ أظهر، لأن المستعار منه مَطْوِيُّ الذكر ، فلهذا حسُن موقعُها وأنت إذا أظهرْتَ أداةَ لتشبيه تكاد تنقص من بلاغتهِ ، وتغُضُّ من موقع فصاحته وإنما قال : « يغشى الليل النهار » ولم يقل يُلْبِسُ ولا يخلط الليل بالنهار ، لأن لفظة التغشية ، أبلغُ فى الإحاطة والشمول من لفظة الإلباس والاختلاط ، مع ما فيها من الرقة واللطافة ، والخفّة والسلاسة ، وهى مؤذنةٌ أيضاً بشدّة الاتّصال والالتحام بين الغشاوة ، والمُغْشَى ومِصداقُ ما قلناهُ قولهُ تعالى « وآية لهم الليلُ نسلخ منهُ النهار فاذا هم مظلمون » فشبّه انفصال الليل من النهار بسَلْخ الأديمِ عن الشاة ، وهذا يدلُّك على عِظَم اتصال الليل بالنهار وشدة التحامهِ بهِ ، ولهذا فإنك ترى الفجر عند طلوعه ، نُورُه فى غاية الامتزاج والاختلاط بظلام الليل ، فلا يزال النهار فى قوّة ، وغلبةٍ ، وظهورٍ ، حتى يستولى عليهِ بالإنارة فيمحوهُ ويزيلهُ ، فالسلخُ مؤذن بشاة الالتحام ، كالجلد ، والغشيانُ مؤذن بعِظم الاستيلاء والاشتمال ، وكلاهما مشعرٌ بالاتصال البالغ

(يغشى الليل) جملة فعلية خبرية حالٌ من الضمير فى خلق ، ولهذا جاءت من غير واو ، دالّةً على اندراجها تحت

ما تقدم (يطلبهُ) جملة أيضاً خبرية حال من النهار ، ومجيئُها من غير واوٍ، تَنْبيهٌ على أنها موضّحةٌ للغشيان ومفسّرة لهُ ، لأنهُ لَما جعل النهار غاشياً لظلمة الليل بالإنارة جعل النهار كالطالب لظلام الليل بالسرعة فى الإزالة والمحو ، فكأنهُ قال : أغشيت الليل النهار ، وجعلت النهار طالباً لهُ بالسرعة والإحثاث ، ويحتمل أن يكون (يطلبهُ حالاً من الليل ، أى جعلت الليل طالباً للنهار يستدعيهِ لإزالة ظلمتهُ وكشف سواده بالإنارة والضوء ، والأولُ أعجب ، لأجل تقدم قوله (يغشى الليل النهار) فلما كان النهار غاشياً لظلام الليل ، كان هو الطالب لإزالة ظلامهِ ، وانتصابُ « حثيثاً » إما على الحال من النهار ، أى مسرعاً عجلاً ، وإما على الصفة لمصدرٍ محذوفٍ ، أى طلباً حثيثاً ، وكلا المعنيين لا غُبارَ على وجههِ ، وإنما جاء قولهُ (خلق) على صيغة الماضى ، وقولهُ (يغشى) و (يطلبهُ) على صيغة المضارع ، تنبيهاً على استقرار الخلق وتحققه وثبوتهِ بالمضىّ ، ولما كان الغشيانُ والطلبُ يتجددان بحسب الأوقات ، جاءت المضارعة للإشعار بالتجدّد والحدوث . وإنما قال (الذى خلق السموات والارض) ولم يقل : الخالق للسموات والارض ، لأن الفعل الماضى أدلّ على تحقّق الخلق وثبوتهِ واستمرارهِ من اسم الفاعل

(التنبيه الخامس)

قولهُ تعالى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره)

انتصابُها على العطف ، أى وخلق هذه الكواكب العظيمة المختصة بالإتقان العجيب ، والإحكام الباهر ، ولِمَا اشتملت عليهِ من المصالح العامّة للخلق ، فالشمسُ للضوءِ ، والإنارةِ ، والدِّفْءِ ، وإصلاح جميع الناميات ، والقمرُ للنور الساطع ، وتقدير الأوقات ، والنجومُ للاهتداء فى ظلُمات البرّ والبحر ، وغير ذلك من المنافع والمصالح (مسخرات) انتصابهُ على الحال من جميع ما تقدم ، أى مُذَلَّلاتٍ لهذه المنافع ، على قانون الحكمة ، وعلى وفق ما قدّر فيها من المصالح « بأمره » فيهِ وجهان ، أحدُهما أن تكون الباء فيهِ للإلصاق ، ومعناهُ أن التسخير والإذلال ملتصقان بالأمر ، كما تقول . كتبت بالقلم ، وثانيهما أن تكون الباء للحال ، وعلى هذا يكون معناهُ ملتبساتٍ بالأمر فى كل الأحوال لايخرجْن عنهُ ساعةً واحدةً ، ولا يَملْن عن الانقياد طرفةَ عين ، وإنما قال . (بأمره) ولم يقل . بقدرتهِ ، مع تحقُّق الحاجة الى القدرة أكثر من الحاجة الى الأمر ، لأنهُ لمّا ذكر التسخير وفيهِ معنى الطاعة والانقياد ، عقّبهُ بذكر الأمر ، لِمَا كانت الطاعةُ من لوازم الأمر وأحكامهِ

(سؤالٌ)

لِمَ خص معاقبة الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، من بين سائر المكوّنات بالذكر مع اختصاصها بالحكمة والإتقان العجيب

وجوابهُ هو أنهُ لمّا صرح بلفظ السماء والارض ، وأبهَم الأمْر فى خلق ما ورآءهما بقولهِ (وما بينهما) أراد إيضاحهُ وبيانه ، فخصّ هـذه أعنى تعاقبَ الليل والنهار وهـذه الكواكب بالذكر ، إيضاحاً لما أبهمهُ من قبلُ فى ذلك

(التنبيه السادس)

قولهُ تعالى (ألاَ لهُ الخلْقُ والأَمرُ) لَمَّا ذكر هـذه المخلوقات العظيمة ، وعدّد هذه المكوّنات الباهرة ، عقّبها بحرف التنبيه ، إيقاظاً وحثاً على النظر ، وإعلاماً بأنها ملكٌ لهُ يتصرف فيها كيف شاء ، من الحَلّ والعقْد ، والزيادة والنقصان ، وغير ذلك من سائر التصرفات والتغيرات ، وقولهُ (ألا لهُ الخلْقُ والأَمرُ) فيهِ وجهان أحدُهما أن تكون اللام فيهما للعهدية ، فالخلْقُ إشارةٌ الى ماسبق من أنواع المخلوقات كلّها ، والأمرُ ، إشارةٌ الى قولهِ (مسخرات بأمره) فكأنهُ قال : يملك جميعَ ماسبق من هذه الاشياء كلّها

(وثانيهما) أن تكون اللام فيهما للجنسية،وعلى هذا يكون المعنى أنهُ يملك جميع المخلوقات والأوامر كلّها ، فكأنهُ قال : يملك القول والفعل ويجرى ذلك مجرى المَثَل ، كما يقال فلان يملك الأمر والنهى ، والحلّ والعقد ، والقبُول والرّدّ ، والإبْرَامَ والنقْض ، يريد أنهُ لاتصرُّفَ لأحد سواهُ ، ولا حُكمَ لغيرهِ بحال ، فلَمّا عدّد أصنافَ المخلوقات كلها وأنها جاريةٌ

على نعت التذْليل ومنهاج التسخير المطابقين لقانون المصلحة، ومقتضى الحكمة ، عقَّبهَا بخطاب دالّ على الإشادة والاشتهار ، بأنَّ مَنْ هذه حالُهُ فهو المستحقُّ لأَنْ يكون لهُ الخلقُ والأمرُ مبالغةً فى الأمر وتأكيداً فيهِ

(التنبيه السابع)

قولهُ تعالى (تبارك الله رب العالمين) ختم هذه الآية بما يدلُّ على الإعظام والمدح بعِظَم الآلاءِ ، وتَرَاكُم النِعَم على الخلْقِ ، والبركةُ هي النماء والزيادة ، و(تبارك الله) بمعنى بارك اللهُ ، والبركةُ فى حقهِ تعالى تكون من وجهين ،

(أحدُهما) بالإضافة الى ذاتهِ تعالى بكثرة أوصاف الجلال ونعوت الكمال . إمَّا الى نهاية ، وإما الى غير نهاية ، على حسب الخلاف بين العلماء فى أوصافهِ تعالى

(وثانيهما) بالإضافة إلى أفعالهِ تعالى من أنواع الإحسانات وضروب التفضُّلات على الخلق من أُصُول النِّعم وفروعها ، فالبركةُ ههنا تُفَسَّرُ على الوجهين اللذين أشرنا اليهما كما ترى ، وقد صدَّر اللهُ تعالى هذه الآية بذكر الرّبوبية ، ثم ختمها بذكرها إعظاماً لهذه الصفة واهتماماً بأمرها ، فذكرها فى أولها على جهة الخصوص بقولهِ (ربكم) يعنى الثقلين وذكرها فى آخرها على جهة العموم بقولهِ (اللهُ

رب العالمين) يريد جميع العوالم كلها من صامتٍ، وناطقٍ، وجمادٍ، وحيوانٍ.

فَلْيُدْرِكِ الناظرُ المتأملُ ما اشتملت عليهِ هـذه الآية من الإشارة إلى خلق المكونات كلّها، واشتمالها على بدائع الحكمة، وعجيب الصنعة على أعجب نظام وأرشقهِ، وأحسن سياقٍ وأعجبهِ، وقد أشرنا فيها إلى بعض ما تحتملهُ من اللطائف والأسرار وما أغفلناهُ من معانيها أكثر وأغزر مما ذكرناهُ

(٢)

من سورة الحج آية ٥، ٦، ٧

(الآية الثانية) قولهُ تعالى فى سورة الحجّ « يأَيُّها الناسُ إنْ كنتم فى رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فإنَّا خلقناكم مِنْ تُرَابٍ ثمّ مِنْ نُطفةٍ ثمّ منْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبيِّنَ لَكُمْ، ونُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ ما نَشاَءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلَا يَعلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عليها المَاءَ اهتَزَّتْ وَرَبَتْ وأَنْبَتتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ذَلِكَ بأَنَّ اللهَ هو الحقُّ وأَنَّهُ يُحيِي الموْتَى وأَنَّهُ

عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ وأَنَّ الساعةَ آتيةٌ لا رَيب فيهَا وأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فى القبورِ »

فليوقظ الناظرُ فهمهُ ، وليتأمّلْ ما أُودِع فى هذه الآية من المحاسن الرائقة والمعانى الفائقة مع اختصاصها بالترتيب الفائق وتنزيلها على النظام المُعْجِبِ الرائق الذى يَسحَرُ الألباب رقّةً ولطافةً ، ويُذهِشُ الأفهامَ عذُوبةً وسلاسةً ، فصدّر الآية بالنداء ، والتنبيهِ ، من أجْلِ الإيقاظ ، وجاء بصيغة الشرط على جهة الملاطفة فى الخطاب ، وحقّق اعتراض الرّيب والشكّ فى الأفئدة ليدفعهُ بالبرهان الواضح الجلىّ وضمنها برهانين

(البرهانُ الاول) منها عجيبُ خلْقَة الإنسان وتنقُّلها فى هذه الأطوار السبعة ، ترابًا ، ثم نطفة فى الرّحم ، ثم علَقة ، ثم مُضغة ، ثم الطفولة ، ثم الكُهُولة ، ثم الشيخوخة والهَرَم ، فقد أشار بهذا التدريج الى عجيب القدرة ، وإلى دقيق الحكمة على اختلاف هذه الأطوار ، وتباين هذه المراتب فى الخلقة .

ودلالتُها ، من وجهين ، أحدهما أنّ كلّ من قدر على إحداث هذه الأمور وإبداعها من غير شىء فهو قادرٌ لامحالة على إعادتها ، لأن الإعادة مثلُ الإيجاد ، ومَن قدَر على الشىء قدر على مثْله لا محالة ،

وثانيهما ، أن الابتداء إيجادٌ من غير احتذاء على مثالٍ سابقٍ ، والإعادةُ إيجادٌ مع سبقِ الاحتذاء ، فمن هو قادر على الابتداء كان أولى أن يكون قادراً على الإعادة بطريق الأحقّ ، ولهذا قال تعالى منبهاً على ذلك بقولهِ (وهو أَهوَنُ عليهِ) يشير الى ما قلناهُ

(البرهانُ الثانى) حالُ الأرضِ بكونها جُرُزاً ثم بإنزال الماء عليها ، ثم بحصول هذه الأزواج النباتيّة المختلفة ، واهتزازها بالأزهار الغضّة والأكمام المنفتحة ، بحيث لا يمكن حَصرُها ولا يتناهى عدُّها ، فهذان برهانان قد اشتملا على ما عدَّد اللهُ تعالى فيهما من عجائب القدرة ، وإتقانات الحكمة ، وساقها على هذا النظام البديع ، والاختصار المُعجِزِ البليغ الذى يُفحمُ كل ناطق ، ويَرُوقُ كلَّ سامع ، ثم إنهُ عزّ سلطانُه ، لما فرغ من نظم هذه البراهين الباهرة وترتيب هذه الأدلّة القاهرة ، عقّبها بذكر ثمرتها ، وتقرير مدلولها ، وإنتاج فائدتها فقال « ذلك » يشير بهِ إلى ما سبق من تقرير الأدلة وانتظامها « بأن الله هو الحق » يعنى الموجود الثابت ، يشير بهِ الى أنهُ مُوجِدُ المكوّنات كلّها المحصّل لحقائقها وصفاتها نحو خِلْقَةِ الإنسان وأحوال الأرض ، « وأنهُ يحيي الموتى » يشير بهِ إما إلى إحياء النفوس بعد أن كانت ترابًا ونُطفاً ، وعلَقاً ومُضَغاً ، فى هذه الأطوار وإما إلى إحياء الارض بعد أن كانت جُرُزاً هامدةً ، يطيرُ ترابُها .

فصارت مُخضرَّةً مُونِقَةً « وأنهُ على كل شيء قدير » على جميع الممكنات ، فلا يشذُّ عن قدرتهِ شيء من كلّياتها ، ولا شيء من جزئياتها ، « وأن الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور » يُشير بهِ الى أحوال البعث ، والحَشْر ، والنَّشْر ، وأمور القيامة ، فقد اشتملت هذه الآيةُ على المعانى الجمَّةِ ، والنُّكَت الغزيرة ، ولو ذهبنا نستقصى ما تضمّنته من الأسرار الإلهية والدقائق المصلحية ، لسرَدْنا أوراقًا ، ولم نُحْرِزْ منهُ أطرافًا ، ومن عجيب سياقها وحلاوة طعمها ومذاقها ، اشتمالها على المجازات المفردة ، والمركبة ،

فأما المجازاتُ المركبة فهى مواضع أربعة ، ففى الأرض ثلاثةٌ فى قولهِ « اهتزت وربت وأنبتت » فإسنادُ هذه الافعال إلى الأرض إنما كان على جهة المجاز ، والفاعلُ لها هو الله تعالى ، وفى وصف الساعة مجازٌ واحدٌ فى قولهِ تعالى « وأن الساعة آتية » لأن الآتى بها هو اللهُ تعالى ،

وأما المجازات المفردةُ فأكثر سياق الآية مشتمل عليهِ كقوله تعالى « فإنا خلقناكم » فالفاء للسببية وليست سبباً فى ثبوت البعث ، وإنما هو واردٌ على جهة المجاز ، وقولهُ تعالى « خلقناكم من تراب » فإنهُ ليس على حقيقة العموم فإن المخلوق من تراب ، إنما هو (آدَمُ) لا غير ، وقولهُ « ثم من نطفة » ليس على عمومهِ ، فعيسى عليهِ السلام « وحوَّاء » ليسا مخلوقين

من نطفة ، وهكذا سائر ألفاظ الآية ، فإنها غير خالية عن استعمال المجازات ، ومن أجل هذا رَقَّ مشْرَبُها ، وساغ مُستَعْذَبُها